زوجة أبي

المؤلف : فايزة توينخ

عنوان الكتاب : زوجة أبي

تصميم الغلاف : عز الدين طيبي

الطبعة الأولى : السداسي الأول 2019

ردمك : 0-22-738-9931-978

عنوان الدار :

تجزئة 53 قطعة رقم 27 بليمور 34025

برج بوعريريج – الجزائر

الهاتف : 0668779826

البريد الإلكتروني :

khayaleditions@gmail.com



فايزة توينخ

زوجة أبي

رواية

الإهداء

إلى أعظم نسمة، وأسمى عبرة، من أنارت صدري وكانت خير سند لي {جدتي} ـرحمها الله ـ إلى من تجرعت تعبي قطرة بعد قطرة تحملت عنادي ونكدي وخطفت حزني دمعة بعد دمعة{أمي}، إلى من علمني الوفاء وكان لي أحسن عزاء فتقمصت منه العزة والكبرياء{جدي}، إلى من كنت بذرة فسقاني ،وبلسان عربي رباني{أخي}، إلى توأم حياتي وخير من ركبوا معي قطار الحياة{ غنية وأميرة} إلى من رسموا أملي وكانوا سندا لي في عملي {أخواتي البنات }،إلى ملاك القوة والإرادة الذي أطلق العنان لكلماتي صديقتي الكاتبة{فرحاوي مريم}

إلى كل من حمل لواء اللغة العربية ، وحافظ على فصاحة اللسان ، إلى معلميها وأساتذتها وناطقيها ،إلى أساتذتي للغة العربية خاصة ، إلى كل من ساعد في إتمام هذا العمل من قريب أو من بعيد.

إلى كل من صادفتني بهم الحياة، فركبوا معي قطارها وسعتهم ذاكرتي ،ولم يسعهم كتابي.

مقدمة

قد يصادفنا قطار الحياة مع أشخاص كثيرين ، وتتحدد طبيعة أرواحهم من خلال تصرفاتهم وأعمالهم فالإنسان يعيش ببستان الدنيا ويستطيع تحديد شخصيته من خلال حريته في قطف الأعمال الطيبة أو الأعمال الخبيثة، وتتحدد عاقبته من حسنها وسوءها حسب نسبة الشر والخير الذي تحمله روحه.

إذن إلى أي مدى قد يصل الإنسان بشره، بغية تحقيق أهدافه؟ ومن ستكون ضحية ذلك؟

لعل العلاقات الاجتماعية غالبا ما يهددها الزوال و الدمار خاصة العلاقات الأسرية، لكن لا تسلم هذه العلاقة من العين الحسود إلى إذا طوقت بسياج من الوفاء والإخلاص والثقة المتبادلة بين طرفي العلاقة.

الكلام الطيبة شفاء لعليل الأرواح، والكلمة الفظة سم لا علاج له ، والثقة لا يمكن أن تقاس على كل من نعرف ، لكن كيف نختار من نثق بهم؟ وما هي مميزاتهم عن البقية؟

غالبا ما نواجه زوابع وعواصف تهدد علاقاتنا مع الآخرين لتضعفها وتقطع حبلها، لكننا نتحمل ذلك بقوة وصرامة

وإصرار ،لكن هل سيكون الوضع ذاته إن كنا نتعرض للطعنات من أقرب الناس إلينا؟ وما هوة شفاء أسقام الغدر والخيانة التي تجعلك تتربع عتبة الذل والمهانة؟

هل يستطيع الإنسان التخلي عن من يحب لمجرد أنه يريد قليلا من التغيير في حياته؟ وهل التغيير هذا يجب أن سيمس الأشخاص ؟ حقائق كثيرة نجهلها وأسئلة أكثر لا يمكننا الإجابة عنها لأننا دائما ما نحكم على الأشخاص من المظهر العام، ونقرأ الكتب من عنوانيها ونكتفي بذلك لمعرفة موضوعها، لكن هذا خطأ كبير، لأن العنوان غالبا ما يتحايل على القارئ ليبعده عن التماس الحقيقة وفهمها وهذا تماما ما ستعيشه زينب من جراء تصديقها لما تراه فقط أمام عينيها، طيبتها وحسن ظنها وثقتها ووفاءها يرمون بها بمستنقع الحقارة والذل الذي ستدفع ثمنه الصغيرة منى التي قدر لها أن تعيش مع زوجة أبيها.

إلى أي مدى يمكن أن يخلص الإنسان لغيره؟ وإلى أي مدي تنتصر الحيلة وينكسر الحق؟

هل يمكن أن نخوض معركة الحياة ، ونركب قطارها نحو وجهتنا المجهولة ونحن لا نحمل من الزاد غير طيبة القلب وصفاء النية، وعلو القيم والمبادئ؟ هل يمكن أن نعيش وسط

الظلام الدامس ونحو لم نتعلم من دروس الحياة غير الصمت والتجاهل؟ كل هذه الأسئلة وغيرها ستجيب عنها روايتها التي كانت بطلتها طفلة صغيرة تجرعت من الهموم ما يكفيها لتصبح واعظة بمدرسة الحياة ومن تكن هذه الهموم من كؤوس غير الكأس الذي تصوغه زوجه أبيها إليها كل مرة.

الفصل الأول

زينب سجينة بالحب

طبيعة الإنسان تدفعه دائما إلى أن يتشارك الأفراح والأحزان مع أشخاص يرسم بوجوههم مظاهر السعادة والأمل ، ويرى أنهم الضفة الثانية من نهر الحياة الذي تعيش فيه المحبة والطمأنينة ، لكن ليس كل هؤلاء الأشخاص هم محط ثقة لأسرارنا ، فنفس الإنسان غيورة والغيرة قد تدفعها إلى الخيانة دون التفكير في عواقب ذلك .

هنا في هذه القرية البسيطة البعيدة عن المدينة الحضرية بأميال معدودة، هذه القرية التي تأسر الزائر بطيبة أهلها وكرمهم وروعة مناظرها وصفاء سماءها ، أتجول مع الكاميرا الخاصة بي لعٌلي أجد ما يشد نظري ،لم أكن أعلم أن هذه الجولة ستجعلني ألتقي بفتاة ساحرة تخبأ بين دفتي قلبها الصغير مجلدات من الحزن والألم، فلم أجد لها صاحب غير ذلك القطيع الذي كانت تكلمه تارة بابتسامة وتارة بدمعة حارة ، هاهي تسرق نظري فأهيم بمحياها البريء أحاول أن أفسر القليل من تلك الملامح.

يا ترى هل أقترب وأتعرف عليها لأفتح كتابها لرُب أستطيع التطلع على ما تخفيه،أم سأكتفي بسرقة النظرات والتطلع إليها خلسة؟ بينما أنا أطيل النظر إليها وأفكر في طريقة للاقتراب منها، تستقطع تأملي فيها بنظرة حادة تظهر بركانا من الألم والغيظ ،فلم أجد حلا غير الهروب، حينها فقط أدركت أن ما

تحمله حقيبة هذه الفتاة أشد ما تستطيع تحمله، ها أنا أهم بالعودة إلى ذلك النزل المتواضع ، أمر غير مألوف يحدث معي ، دخلت النزل يخاطبني عامل الاستقبال ذلك الطفل الصغير الموهوب الذي وعدته في الصباح بأن أستمع إلى قطعة من عزفه على ذلك الغيتار البسيط الذي أخبرني أنه قد جاءه هدية من عمه الذي يسكن بالمدينة ، لم يقتحم سمعي غير همهمات غير مفهومة وهو يقول:{ مساء الخير سيدي كيف حالك؟ أتريد أن أرسل لك العشاء إلى غرفتك؟ أم أنك تريد أن تستمع إلى عزفي تحت النجوم؟ ليست عادتي أن أتجاهل الناس لكن لا أعلم ما كان يحدث معي ، وقفت برهة تأملت ذلك الطفل وهو ينتظر جوابي، ثم أواصل السير إلى غرفتي أفتح الباب بتأن كبير ثم أرمي بمعطفي هنا والكاميرا هناك والمحفظة لا أعلم أين؟ لم أقوى على الحراك رميت بثقل جسدي على ذلك الفراش الذي نظفه الصغير بكل حب، شهيق زفير إنني أختبر تنفسي...لبرهة كنت أظن أنني لا أتنفس ..أمر غريب لمَ يحدث كل هذا لمجرد أنني قابلت فتاة قروية نشيطة؟ راودتني شكوك كثيرة بدأت أدونها على قصاصات صغيرة وأعلقها على اللوح، تأملتها لساعات وفجأة يدق باب مخيلتي صديقي الذي أهملت مرافقته منذ قررت السفر إلى هذه القرية، هاهو يقول: ألم يحن موعد لقاءنا

بعد؟ ألا تجد نفسك مرهقا؟ ومتشوقا لأن ترتمي بأحضاني فتسمع قصة من قصصي وبعدها أهديك حلما جميلا تبدأ به يومك الموالي؟ ...أرد عليه ببرودة أظنني فعلا أحتاج إلى ذلك...صديقي أعتذر سآتي إليك حالا ...آه يا رفاق إنه النعاس حينما يأتي لا مجال لرده..اخلدوا للنوم لتستجمعوا طاقة كافية استعدادا لرحلة الغد ، فأظنها ستكون مشوقة ومتعبة.

في صباح اليوم الموالي ، يرن المنبه المغفل ،آسف إنني كسول جدا ويصعب علي الاستيقاظ من النوم لهذا فكرت والدتي في أمر مختلف قد سجلت صوتا حنونا يوقظني كل صباح،لأشعر بوجودها أينما كنت ها هي تقول: يا بني استيقظ فإنك لم تعد ذلك الطفل المشاكس الآن أنت رجل مسؤول ، ولهذا عليك أن تستيقظ باكرا ،استيقظ فإني حضرت فطورك المفضل.

أتلذذ شفاهي كأنني أتذوق ذلك الفطور وأهم بمغادرة الفراش بسرعة خوفا من غضب والدتي الحنون ،ما إن أستيقظ أجد نفسي في غرفة غير غرفتي وفراش غير فراشي، حينها أتذكر أني غبي فأنا مسافر ...آه كم اشتقت لك يا أماه؟ ..دقات متوالية تقاطع جلستي الصباحية مع صورة أمي .

سيدي افتح الباب ،أنا خالد جئت لك بقهوتك كالمعتاد.

أجر قدماي بتثاقل إلى الباب، أفتحه وأخاطب الصغير: اترك القهوة على الطاولة و حاول تنظيف هذه الفوضى يا بني .

خالد طفل صغير لكنه يتمتع بإصرار كبير وآدابه وأخلاقه جعلته يتميز بلباقة حسنه ينتقد لها عمال الاستقبال بأشهر الفنادق بالمدينة.

يا إلهي ...إنه نشيط أعترف بذلك ..لكن إنه فوضوي هاهو يردد أناشيد دينية بإيقاع غير إيقاعها.

خالد اشتغل و لزم الصمت.

آسف سيدي لا أستطيع أن أعمل بصمت ، فهذه الأناشيد تحقنني بجرعة نشاط يدوم لعمل يوم كامل لهذا يجب علي أن آخذ حقنتي في الصباح.

يا الهي...موهوب صغير ..نشيط وله براعة في الرد.

فجأة يصرخ خالد...منى ..منى ..

أهرع إليه مسرعا فأجده متسمرا أمام اللوح أحاول أن أشد انتباهه بالكلام...لكم لا يستجيب فأحركه من مكانه بقوة ..ما بالك خالد؟

يحدق بي بنظرات مخيفة وهو يكتسي بوشاح الاستغراب ،سيدي ..سيدي..إنني أعرفها جيدا .

من تقصد يا خالد؟

خالد : وهو يشير بإصبعه إلى اللوح: صاحبة الصورة يا سيدي .
آه أنت تقصد الفتاة القروية تلك. إنها غريبة جدا وقد انغمست في بحر من الحيرة بسببها الليلة الماضية. خالد: إذن هذا هو سبب شرودك الذهني البارحة؟ جعلتني أنتظرك لساعة متأخرة من الليل ثم عند عودتك تجاهلتني.
بني لم أقصد تجاهلك ،لا أدري ما كان يحدث معي البارحة. حسنا ..يا خالد أعدك بمكافأة جميلة ورائعة بعد أن أتمكن من الكشف عن خبايا هذه الفتاة، فإني بعد رؤيتها صرفت النظر عن التصوير فهناك أمر غريب يشدني إليها وكلما فكرت بتجاهل الأمر تعود صورتها تدق باب مخيلتي فتقتحم أفكاري دون إذن حتى..ماذا أفعل لأتخلص منها يا خالد؟
خالد: { بنبرة حزن وعطف ولين} إنها فتاة غريبة حقا..لكن هذا بسبب القدر الذي أبكاها آلاف المرات فإنها لا تتلذذ السعادة حتى بأيام الأعياد، تكاد لا تتغذى إلا من الأحزان والآلام، وتتجرع من كأس المر يوميا..ويسوق الكأس هذا إليها زوج أبيها هداها الله.
زوج أبيها ..أهذا هو سبب تعاستها هكذا ؟
خالد : لا يا سيدي السبب أكبر من ذلك بكثير ،والله إنها كومة من الأحزان..لا بل إنها طوفان جارف حقا ، أعلم علم اليقين

أنك إن سمعت قصتها للأخير تسيل عينيك سيلا من دمع لا يتوقف.

يا الهي...هل الأمر شديد لهذه الدرجة؟

خالد: إنه أشد مما يمكنك توقعك يا سيدي.

بني سأعطيك كل ما تريد فقط أطلعني بخيط واحد وإن كان رفيعا لأصل إلى قصة هذه الفتاة فإن روحي لن تشعر بالسلام إذا قيدت القصة ضمن المجهول.

خالد: سيدي الفتاة في العقد العشرين من عمرها وأنت تعلم أنني أصغرها بثمان سنوات ، إذن أنا لا أعرف الكثير عنها لقد صادقتها مؤخرا بعد أن سمعت جزءا من قصتها عن لسان جدي.

وأين جدك الآن..؟ خذني إليه.

حسبك.... سيدي سآخذك إليه حينما يعود من العيادة القريبة، لأن اليوم موعد فحصه الروتيني.

حسنا خالد الآن سأوضب هندامي ثم بعد ذلك آتي إليك.

خالد: وهو يعلي ضحكات سخرية : سيدي توضب هندامك؟ أتظن أنك ذاهب للقاء رئيس الوزراء؟

أتسمر مكاني وأقطب حاجبي ،أستجمع حروفي لأرد عليه بغيظ.

يسابقني للكلام...أمزح سيدي ..البس قميصك الأسود لأنه يظهر شخصيتك المهمة.

يا الهي...طفل غريب لطف الجو بكلماته البسيطة هذه، غادر خالد الغرفة، وها أنا أسرع لحقيبة ملابسي ثم أجد نفسي فعلا أبحث عن القميص الأسود..غريب أظنني أخذت مزاح خالد على محمل الجد؟

لكن فعلا قررت أن ألبس القميص الأسود، كيف لا ؟ لرب خالد ذوقه أجمل؟ أ تشكون في ذلك؟

ها هو خالد ينادي بصوت مرتفع، سيدي ..هلم بالنزول عاد جدي علينا مقابلته قبل أن تعود له نوبة فقدان الذاكرة. ثم يضحك بصوته البريء.

أظنه يمازحني مجددا ؟لا يهم فإن مزاحه بات الآن جرعة سعادتي ، سأنزل إليه قبل أن يفقد أعصابه ويغير رأيه.

ما بك خالد تعلي الصراخ أنا بجانبك هيا بنا نغادر.

يتأملني خالد بعينيه الجاحظتين وفمه المفتوح.

أغلق له فمه ثم أقول هلا ذهبنا خالد؟ نوبة النسيان ...أ تذكر؟

يرد خالد آه نعم... نعم هيا بنا نسيت ذلك ،لكن سيدي كيف لي أن أحافظ على قوة ذاكرتي أمام مظهرك الجذاب و أنت بالقميص الأسود .

خالد أ تغازلني أنت أم ماذا؟

سيدي ..أنا أجاملك فقط ، نضحك معا ونغادر النزل نحو منزل الجد.

بعد السير المضني على ذلك الجبل الشاهق نصل إلى وجهتنا ، يا الهي إنه كوخ خال من أي حياة؟

خالد: نعم يا سيدي جدي لا يشعر بالراحة إلا بهذا الكوخ الصغير ليتأمل خلق الله وهنا تعلمت أنا العزف لأنني بعد قضاء يوم شاق بالعمل آتي لأشارك جدي تأمله .

ندخل الكوخ ، ينزلق خالد ككرة من الثلج على سطح أملس لينتهي به الانزلاق إلى صدر جده الحنون ، بعدها عرفت من أين تعلم خالد كل هذه الآداب والأخلاق في سن صغيرة، إنه قد تجرع حليب المسؤولية بدلا من حليب صدر أمه.

تقدم سيدي هذا هو جدي.

الجد بابتسامة جميلة، تعال بني أهلا بك ،أعتذر فإن بيتي متواضع جدا، خالد قم وحضر الضيافة للسيد.

لا داعي لذلك أيها الجد، سنغادر بعد برهة فقط.

الجد: لم يحصل أبدا أن غادر بيتي ضيفا لم يتذوق طعم الشاي الذي يعده حفيدي خالد وهو ينشد.

أضحك بصوت خافت ،فعلا أيها الجد خالد طفل موهوب.

خالد يستقطع مزاحي بغضب : جدي سيدي يعاني أرقا شديدا ولا علاج له إلا عندك هل لك بذلك؟

الجد: {بحس فكاهي}: أيها الصغير لو كنت طبيبا لعالجت سموم أفكارك اللادغة.

خالد: سيدي يريد أن يسمع قصة منى.

يعلي الجد شهيقا طويلا ويتلفظ أنفاسا بصعوبة ويرد عليه: منى..منى الصغيرة الضائعة.

لم ضائعة أيها الجد ؟ هل لك أن توضح لي قصتها مع زوجة أبيها؟

الجد حسنا يا بني سأروي لك ما تيسر على ذاكرتي حفظه و أنت تعلم أنني شيخ طاعن بالسن يقاطعه خالد وهو يضحك: وتأتيك نوبات نسيان يا جدي إنه يعلم ذلك.

الجد: خالد صه عن الكلام ، واذهب إلى عملك.

يغادر خالد ويتركني وحيدا مع الجد، أخرج أجندتي الزرقاء من محفظتي الصغيرة ،وأطيل البحث عن القلم، ثم يبدأ الشيخ بقصته.

يا بني قبل ثمانية عشر عام من وقتنا الحالي ، كانت مني تعيش مع والدتها ووالدها ببيتهم الجميل بأسفل القرية، والدها يملك قطيعا من الأغنام كانت ترعاه زوجته بغيابه، حينما يذهب لمزاولة

التجارة بمحله الكائن بالمدينة، كانت عائلة مثالية عن الحب والاحترام، والمودة والأمل، وكانت منى طفلتهم الوحيدة رزقا بها بعد مدة طويلة من الزواج.

منى تركض هنا وهناك ،تبلغ من العمر سنتين فقط، تلعب البريئة بألعابها ولم تكن تعلم أن هذه السعادة ستفارقها يوما، قد تزوج والداها عن قصة حب رائعة من شأنها أن تكون مثلا بقصص الحب ، من شأنها أن تكتب بالحبر ...لا بل تنقش بالفضة لأنها كانت أنقى القصص وأروعها لا تقل شأنا عن قصة روميو وجولييت أو عنتر وعبلة .

يتوقف الشيخ هنيهة ، يطلب كأسا من الماء، يشرب بجرعات متقطعة ثم يعود ليقول أين توقفت؟

أجيبه بقصة حب والديها.

يقول : هل تريد قصة حبهما ؟أم تريد قصة منى باختصار؟

أيها الجد إن لم يكن لديك مانع، وكنت تستطيع تحمل مشقة القصة فأريدها كاملة.

الجد: والله يا بني لن أبخل عنك بهذه القصة لكن أريد مقابلا.

ما تريد أيها الجد؟ أنا رهن إشارتك.

أريد منك وعدا بأن توصل قصة منى لأبعد مكان، أريدك أن تحاول مساعدتها ،إن استطعت ذلك.

أعدك يا جدي أنني سأبذل قصارى جهدي لتصل قصتها إلى أبعد مكان وسأساعدها .

الجد: إذن سأكمل لك القصة...أحبت زينب عمر...تمهل جدي

من زينب ؟ ومن عمر؟

الجد: أعتذر بني قد نسيت أن أخبرك اسم والدة منى هو زينب واسم والدها هو عمر.

آه ...حسنا واصل قدما جدي.

الجد: أحبت زينب عمر حبا جما وكانت زينب فتاة جميلة حسناء المظهر ،حسنة الخلق، طيبة القلب، رؤوفة وعطوفة، محبة للخير ، لا تتوانى عن مساعدة الآخرين، كانت تعيش بالمدينة رفقة عائلتها، وهي فتاة مهذبة ومتعلمة ، تهوى الخياطة وبارعة في ذلك أيضا، فتحت رفقة والدها محلا لبيع الملابس الجاهزة، وكانت هي التي تخيط هذه الملابس، وأيضا تقوم بتعديلات على ملابس غيرها حسب رغبة الزبائن ، بسرعة ذاع صيت زينب بالمدينة وأصبحت تتوافد إليها الكثير من الطلبات، ولم تكن لتلبيها كلها لو بقيت بمفردها لأنه كما يقال:{يد واحدة لا تصفق} ، راودتها فكرة تشاورت رفقة والدها عليها ، وهي أن تعلم بعض الفتيات الخياطة وستشرف عليهن بمرافقة متواصلة إلي أن تستقيم أعوادهن وتنمو مواهبهن وتقوى أناملهن على

مداعبة آلة الخياطة،فكر الأب مليا بالأمر ثم وافق على اقتراح زينب لأنه كان يرى أنها بائعة لبقة تتمتع بالحنكة والذكاء، وهذا الأمر سيدرُ عليه نزرا ليس بيسير.

سرعان ما تعلمت الفتيات الخياطة لأن زينب كانت تتمتع بموهبة كبيرة،ولسان طيب عطر، فكان حسن المعاملة، واللين في التعليم سبب تعلم الفتيات بطرفة عين ،فاستقبلوا المهنة بصدر رحب، لكن هناك مشكلة أخرى.

ما كانت المشكلة أيها الجد؟

حينما تعلمت الفتيات وأصبحن يخطن بشكل جيد تضاعفت الطلبات أكثر ولم يعد يقوى الأب على الوقوف يوما كاملا بالمحل ويقفله لساعة متأخرة من الليل، حتى يتفرغ لتفقد دفاتر الحسابات، وأيضا عندما يغادر لاقتناء القماش ولوازم الخياطة عليه أن يقفل المحل.

هذا ما جعل زينب تبحث عن شخص مناسب ليساعد والدها في العمل ، مرت أيام وأيام ولم تتوقف عن البحث ،إلى أن سمعت حديث التاجر الذي بجانبها يرد على أحدهم:{ آسف لا أستطيع أن أعطيك عملا فمحلي لا يجني الكثير، و المال الذي أجنيه لا يسد حاجياتي فمن أين أدفع لك أجرتك؟}

تسرع منى لجارها : مرحبا عمي أحمد ،هل تحتاج مساعدة؟

أهلا بك زينب ،لست أنا من يحتاج مساعدة ،بل هذا الرجل إنه غريب وصل منذ أيام معدودة إلى المدينة وهو يبحث عن عمل مؤقت حتى يتمكن من ترتيب أموره.

زينب: هل تستطيع أن تعمل معي؟

عمر: نعم يسرني ذلك.

زينب :إذن تعال معي سأضعك فترة تحت التجريب وإن أعجبني العمل وأبهر زبائني فإنك ستبقى معنا وأضاعف لك مرتبك حسب مردود عملك.

يقبل عمر العرض ويذهب رفقة زينب ،لم تكن تعلم أنه سيأسرها بحبه، وسيطلب قلبها أجرا لذلك، مرت سنة كاملة على عمل عمر بمحل زينب وقد استوطن عمر بآدابه وأخلاقه قلب والد زينب حتى أنه أمن له بيتا صغيرا في الجهة الخلفية من بيته ليبقى قريبا منه دائما .

في يوم من الأيام كانت زينب تمشط ضفائرها الذهبية تحت أشعة الشمس في بهو البيت، يسرق عمر نظراته إليها خلسة، يتأملها تضع الكحل على عينيها البنيتين ليفقد السيطرة على قلبه أخيرا.

بعد أيام من المشهد أصبح عمر يسافر بمخيلته كثيرا، تارة قد تزوجها وأخذها خارج البلاد ، وتارة يعانقها وسط حقله في قريته الصغيرة، يتردد عمر في إخبار زينب بم يحدث معه ، وبعد

نجاح النشاط فكر الأب في فتح فرع آخر ، في منطقة أخرى ليستقطب زبائن أكثر ويسهل عليهم التواصل مع زينب.

قرر الأب أن يذهب عمر ليرعى شؤون المحل الجديد والأب سيبقى بالمحل القديم باعتباره قريب لبيت، يهم عمر ليجمع لوازمه استعدادا للرحيل، فجأة تأتي إليه زينب لتقول : هل ستغادر دون وداعي عمر؟

عمر: والله يا زينب لن أقوى على الوداع، وإن فؤادي مصاب الآن ولا يتحمل صدمات جديدة.

ترد زينب أتظن أنك الوحيد الذي يحب؟ أم تظنني قاسية القلب؟

عمر : ماذا تقصدين زينب؟

زينب : إنني أحبك ضعف ما تحبني ، وإنني قد لاحظت حبك لي ، لكن للأسف كنت أنتظر منك الاعتراف والاقتراب إلى والدي حتى تكتمل قصتنا.

عمر : كنت استجمع قوتي ، وأنتظر جرأتي لتحط على مطاري قريبا ، لأحملها وآتي إليك طالبا يدك في حلال الله وشرعه.

قد سمع الأب حديث زينب وعمر وأسرع إلى زوجته، وقال لها شتان بين عامل وزوج.

استغربت زوجته وقالت: ما بالك يا رجل؟ أ تكلم نفسك؟

يجيب الأب : علينا أن نتدبر أمر زواج زينب سريعا، لأنه مرتقب حدوث كارثة عاطفية، لا أريد لابنتي أن تتزوج عاملا من عمالي هذا مستحيل.

في الجهة الخلفية من المنزل دموع الفراق والاعتراف تمتزج بسعادة الحب ،ها هما قد التقيا بعد طول أحلام يتعانقان عناقا طويلا ،ثم فجأة تقول زينب :عمر ماذا سنفعل الآن؟

عمر: بما أنك معي الآن لا يهم أي أمر آخر ،يجب علي أن أكلم والدك بالموضوع.

يغادر عمر بعدها إلى المحل الجديد، يخيم على البيت هدوء رهيب، إنه الهدوء قبل العاصفة يا بني، بعد شهر عاد عمر للبيت وكلم زينب وقرر أن يفتح الموضوع مع والدها، لم يكن يعلم أنه سيخسر كل شيء في تلك اللحظة .

يستجمع عمر حروفه التي طال أنينها داخل مخيلته، مرحبا عمي كيف حالك؟

الأب : أهلا عمر أنا بخير وأنت؟

عمر : بأحسن حال والحمد لله.

الأب: هل بك شيء؟ لم جئت وتركت الدكان؟

عمر: جئتك اليوم لأجل موضوع مهم ولا يقل شأنه من شأن العمل والدكان.

الأب : وما هو هذا الأمر الذي لا ينتظر حتى المساء؟

عمر: عمي أنا ممتن لك ولابنتك على كل ما قدمتماه لي في الفترة الأخيرة ، لكن بينما انهمكت بالعمل فقدت فؤادي عند إحدى عتبات منزلك يا عمي، فأصبحت لا أنام إلا على وسادة من الأرق والتوتر إنني أصبحت أسيرا لا يقوى على الحراك....

الأب : عمر ادخل بالموضوع لا أحتمل المقدمات.

عمر: إن وقوفي أمامك وحده من شأنه أن يجعل حروفي تهاجر، فكيف أسيطر عليها وأنت لم تصرف النظر عني ، آسف أنا مرتبك قليلا.

الأب: عائشة كأس من الماء لعمر ، أظنه يحتاج لذلك.

عمر : عمي أريد أن أتزوج من ابنتك زينب .

الأب: عمر أنت عامل نشيط وذكي فعلا لكن شتان بين العامل والزوج ، لا أستطيع أن أزوجك ابنتي.

عمر: لم ؟ هل تشعر أنني لا أستحقها؟

الأب: لا أستطيع ذلك وكفى .

عمر: أعدك أنني سأحافظ عليها وأرعاها.

الأب: وهو يضحك ترعاها أم ترعى والدتك المقعدة؟ اغرب عن وجهي وسلم مفاتيح الدكان وعد أدراجك إلى قريتك المشؤومة.

لقد ظهر الأب على حقيقته ، إنه يمقت عمر وكان يعامله بلطف فقط لأنه أثبت مردودا لا نكرانا له في العمل ، في الجانب الأخر من قاعة الضيوف تسمرت زينب باكية العينين لأنها شعرت أنها تعرضت لكلام مهين من والدها.

ها هو عمر يحبس دموعه داخل عينيه ويرمي مفاتيح الدكان على الطاولة الزجاجية التي كانت أمام الأب الذي كان يضع قدميه عليها، لملم عمر لوازمه التي بقيت من كرامته وشرفه ونخوته وقرر المغادرة لكن قبل ذلك ذهب لرؤية زينب بغرفتها، يدخل الغرفة إذ وجدها منشغلة بحزم أمتعها ، سألها: أ تنوين السفر لمكان ما يا زينب؟

زينب: أي سفر أيها الغبي أنا أستعد للمغادرة معك.

يحدق عمر بزينب طويلا ثم يضمها إلى صدره ضمة قوية ، لم أتوقع هذا منك لكنني أشعر بالسعادة.

تدفعه زينب بعيدا : عبر عن سعادتك لاحقا علينا المغادرة قبل أن يكشف أحدهم أمرنا، همت زينب بالرحيل مع عمر وجاءت تلك البريئة إلى هذه القرية لتكون عروسا جميلة بل أجمل من القمر ذاته، كانت تهتم بالصغير والكبير منا، مضيافة كريمة، لينة الحرف، عذبة الصوت، إضافة إلى أن طبخها كان لذيذا جدا...آه أشعر بالجوع ..خالد ناولني الغذاء

أعتذر بني كلما أتذكر زينب وطبخها الذي لا يقاوم أشعر بالجوع.

عاشت زينب مع والدة عمر المقعدة وكانت تهتم بها كثيرا، وتهتم بالقطيع بينما كان عمر يهتم بدكانه الجديد الذي فتحه بعد الزواج، عمر وزينب ادخر كل منهما مبلغا من المال للمستقبل وهذا ما استعملاه لشراء الأغنام وترميم البيت ، وفتح الدكان وواصلت زينب نشاطها المعتاد مع زوجها.

انقضت أربع سنوات على زواجهما توفت والدة عمر وحل الحزن بالبيت، بعدها بدأت زينب تشعر بالوحدة والفراغ، مما جعلها تصر على زيارة طبيب النساء متأملة الإنجاب.

أخذها عمر إلى المدينة وبعد عدة فحوصات متواصلة مقسمة على فترة ستة أشهر ،حملت زينب بمنى أخيرا، وعادت الفرحة لتحتضن بيتها الصغير من جديد، عادت زينب مع عمر إلى القرية بعد إجراء الفحص الأخير ،وقالت الطبيبة أنه على زينب أن ترتاح كثيرا وتبتعد عن الأعمال الشاقة، حتى تتجاوز الفترة الأولى من حملها، ووصفت لها بعضا من الأدوية التي من شأنها أن تحافظ على بنيتها القوية، وتحافظ على الجنين داخل رحمها.

عاد عمر بوجهه الذي حجبه ستار فضي مرصع بأجمل الجواهر أتراها جواهر الفرحة والسعادة لاستقبال ضيف جديد بالعائلة،

بدأ عمر يهتم بالأمور الكبيرة والصغيرة بالبيت ولم يترك مجالا لزينب لتغادر فراشها، أرسل عمر ابني {مجد} إلى المدينة ليتولى أمور الدكان وبقي هو هنا يرعى القطيع من جهة و يراقب زينب وحالتها الصحية من جهة أخرى ، إنه لا يفارقها أبدا ، ألم أقل لك بني أن قصتها تسحق الخلود في سماء العشاق ..؟

بعد انقضاء تسعة أشهر جاء اليوم المنتظر لتضع زينب المولود الجديد ، ذبذبات من الصراخ المتقطع تعتلي من بيت عمر ، يجتمع الجيران حول بين زينب ويرددون إنها تلد ...إنها تلد....لم تكن فرحتهم أقل شأنا من فرحة عمر، لكن عمر شعر أنه أصاب بالصمم، لا يسمع شيئا غير صراخ زينب، رجلاه مثقلتان تسمر بمكانه ويداه كأنهما مكبلتان بأصفاد من حديد....إنه القلق والتوتر حينما يشعر الإنسان أنه على وشك أن يفقد إنسانا عزيزا عليه ومقربا إلى قلبه.

هاهي تلك المرأة القروية قوية البنية ذات الشارة الخضراء على جبينها، ترفع أكمام قميصها ، وترفع عباءتها، لتنزل عن ذاك الجبل الشاهق...نعم بني إنها زوجتي القابلة هي التي ذهبت لاستقبال منى ، ما إن وصلت لبيت زينب وجدتها تتصبب عرقا وحرارتها مرتفعة جدا، تهم بالصراخ لإحدى النساء حتى تأتيها بالماء الساخن وتقرب لها معداتها، أترى أن منى كانت تصارع

للبقاء داخل رحم أمها كأنها كانت ترفض هذه الحياة من بدايتها، بعد ألم المخاض الطويل وصراع زينب مع الحرارة تمكنت القابلة من مسك منى وإخراجها من رحم أمها وتقول :أخيرا..أنجبت فتاة ..أنجبت فتاة

همهمات تقتحم آذان عمر لكنه لم يسمع سوى صيحات النساء اللواتي عبرن عن فرحتهن بزغاريد وضحكات عالية اختلطت بالدموع، نعم كل هذا حدث فقط لأنها زينب لأنها تلك العروس التي كانت تعطف على الكبير والصغير، التي كانت الممرضة، والمعلمة، والرفيقة ، ونعم الجارة والزوجة والبنت والكنة، إنها فرحة القرية التي جاءت بفرحة أخرى، مولد منى كأنه يوم عيد ينتظره الكبير منا والصغير لنأكل أجمل ما لذ وطاب، ولنلبس الجديد، ولنقابل الأقرباء والأصدقاء، بل إن مولد منى لا يمكن أن يقارن بيوم أخر لأنه فريد من نوعه، وخرج عن المألوف.

هاهي القابلة تضع منى بين يدي زينب بعد أن استجمعت قواها وغادرها الألم، تفضلي زينب إنه فتاة.

ألن تختاري لها اسما؟

تجيب زينب: بلى سأسميها منى.

القابلة: إنه اسم رائع بوركت بنيتي وأطال الله عمرك لتريها عروسة مثلك.

زينب : أين عمر؟

القابلة: لحظة وضعت الفتاة هرول مثل المجنون صارخا بين الحقول ولم يعد لحد الساعة.

زينب:{تبتسم خجلا} إنه يشعر بسعادة تضاعف سعادتي يا خالتي لأنه كان حينما ينام يحلم ويهذي باسم منى لهذا أسمتها منى ، و تمنى أن تكون فتاة فكنت بعد نومه أتوضأ وأصلي ركعتين وأسأل الله تعالى أن يحقق أمنيته لتكون ببطني منى، وها قد تحقق حلمه فدعيه يفرح كيفما شاء.

عاد عمر إلى البيت فوجد الفتاة بين ذراعي زينب أسرع فأخذها إلى حضنه ثم تلفظ الآذان بأذنها وقال اسمها، بعد ذلك طأطأ على جبين زينب ليحط عليه قبلة ساخنة فيها امتنان وشكر وحب واحترام .

زينب: أتمنى أنك سعيد الآن؟

عمر: والله يا زينب صراحة سعادتي الآن لا تضاهي سعادتي وقت رؤيتي لك وأنت تضعين الكحل على عينيك يا حلوتي، الآن أهديتني أجمل هدية بفضل المولى والحمد لله.

زينب: طول هذه السنين لم تتغير أبدا لازلت ذلك الشاب المتهور الذي جاء إليَّ أول مرة.

عمر: حسنا حسنا يا حلوة الآن علينا أن نكتب قائمة المشتريات لنحضر حفل استقبال لمنى ،{صمت برهة ثم أضاف} أتعلمين أنني مشتاق للطمينة التي تحضرينها؟

زينب:{بغضب} لقد تألمت كثيرا وزادت مسؤولياتي واشتقت لوالدي وأنت تفكر ببطنك التي لم تعد تجد مكانا تنمو فيه من جسمك؟

عمر:آه ..أنت الآن تستهزئين ببطني المنتفخ لن أجادلك ،اليوم أنت الملكة.

نعم يا بني كان عمر يبدد ضباب الاشتياق ، ويخمد نيران الفراق، بكلمات عفوية يغازل بها زينب تارة ويمازحها تارة أخرى، لأنه لم يكن يقوى على رؤيتها وهي تتخبط بين الماضي والحاضر.

كتبت زينب القائمة التي طلبها عمر وسلمته إياها ، وغادر للمدينة لشراء ما طلبته، وفي طريقه ابتاع لها سلسالا هدية، وقد مر بجانب محل والدها ،لأول مرة بعد زواجهما قرر أن يسأل عن حاله، ما إن اقترب إلى المحل وجد به فتاة في ربيع عمرها ،

تخاطب الزبون هذا وتبيع الآخر ، وقف عمر أمام المحل برهة ثم قرر أن يسألها: قال لها :من أنت يا فتاة؟

قالت الفتاة : أنا أمل ابنة صاحب المحل{ صمتت قليلا ثم أضافت} ـ رحمه الله ـ

تراجع عمر خطوتين للوراء وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله، متى توفي؟

قالت أمل قبل تسعة أشهر من تاريخ اليوم.

عمر : يا الهي..إنا لله وإنا إليه راجعون رحم الله فقيدكم أختي ،

هم عمر بالرحيل وقد إغرورقت عيناه بالدموع، توقفه أمل : تمهل...تمهل...هل تعرف أبي؟

قال عمر : أنا عمر زوج أختك زينب.

فرحت أمل كثيرا وراحت تعانقه وتسأله عن زينب.

قال لها: زينب وضعت مولودة جديدة اليوم بعد سنوات عديدة من زواجنا ، لكن أنت لم أكن أعرفك؟

أمل: نعم زوج أختي أنت لا تعرفني لأنني كنت أعيش مع عمتي بأقصى الصحراء ودرست علوم القرآن هناك وبعد الانتهاء عدت إلى هنا فوجدتك غادرت مع زينب ،لهذا أخذت مكانها بالمحل ، لكن بعد وفاة أبي لم يبق غيري أنا وعمتي ،وهذا ما جعلني أنوي يبع المحلات ومغادرة المدينة.

عمر: أنت وعمتك فقط؟ أين أمك؟

أمل : أمي قد توفيت بعد مغادرتكما بسنة واحدة .

عمر : يا إلهي...زينب المسكينة حلت بها فاجعة كيف أنقل لها الأمر؟

أمل: لا تقل لها شيئا لأنها لازالت مريضة ولم تتعاف جيدا.

عمر: إذن هلا أتيت معي ستفرح زينب؟

أمل : كنت أتمنى ذلك لكن للأسف قطعت وعدا لأبي أن لا أتواصل مع زينب والآن أنا قد ارتبطت بابن عمي ولن يسمح لي بالمغادرة معك، لكن خذ هذه القطعة لقد خطتها خصيصا لزينب { نزعت قرطين جميلين من أذنيها وقالت } وهذه هديتي لابنتك.

أخذ عمر الهديتين وغادر المحل محملا بأحزان كثيرة كانت حملا ثقيلا علي عاتقه، فهو الآن لا يستطيع إخبار زينب بأمر والديها، وفي الآن نفسه لا يستطيع أن يكتم السر طويلا.

بعد السير الذي دام ساعات شابهت السنين عند عمر الذي كان شارد الذهن تماما ، يسمع تحيات المارة ولا يقوى على الرد عليهم، أصبح شاحب اللون بارد اليدين ، لا أدري إن كانت هذه صدمة وحزنا لفراق والد زوجته ،أم كانت تأنيب الضمير

لأنه أبعد زينب عن والدها الذي كان كل شيء بالنسبة لها، ومن المؤكد خبر وفاته سيكون أشبه بصاعقة تهدم ذاكرتها وفؤادها.

ها قد وصل عمر إلى القرية و رفع لحاف برنسه ومسح دموعه حتى لا تكشف أمرها زينب ، دخل البيت وألقى التحية: السلام عليكم.

زينب: أهلا عمر لقد أطلت الغياب ، هل أنت بخير ؟

عمر : نعم أنا بخير أعتذر كان هناك مشكلة في الحافلة التي تأتي من المدينة إلى القرية.

زينب : حسنا ،استحم ،ثم تناول أكلك تركته على الطاولة.

يذهب عمر ليستحم لعله يسقط دموعه مع المياه ويتخلص منها.

بني قليلا ما نجد حبا ووفاء كهذا لكن العلاقات يجب أن تحاط بسياج قوي للحفاظ عليها ولا يكون هذا من طرف واحد، بل عليه أن يكون مشتركا بين الطرفين.

يتوقف الشيخ عن الحديث بسبب السعال، يهرول إليه خالد: جدي ..جدي هل أنت بخير؟

الجد:نعم أنا بخير صغيري ،فقط استيقظت مواجعي وذكرياتي بعد الحديث عن زينب.

أيها الجد لا بأس إن توقفنا هنا اليوم ...غدا نواصل القصة بإذن الله.

الجد: لمَ؟ هل نفذ حبر قلمك؟ ....أمزح بني لا تهتم ،إنني بخير ليس معي وقتا كافيا لأنتظر الغد ، علي أن أكمل لك القصة لتباشر أنت تنفيذ وعودك غدا، أنا شيخ كبير لكن كنت أسمعهم يقولون{ لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد} لا أعرف تفاصيل ذلك ،لكن أحب تطبيق الحكم بجدارة.

يحيرني الجد فعلا يسعى ليتعلم ويطبق ما تعلمه حتى في هذا السن، بينما نحن الصغار نتعلم ونتعلم وننسى ما كنا نتعلم للأسف.

يعود الجد للحديث من جديد: انتبه بني أين كانت المحطة؟

المحطة؟

خالد: سيدي إنه يقصد أين توقف بالقصة؟

آه حسنا فهمت ،جدي توقفنا حينما ذهب عمر للاستحمام وهو مثقل الكاهل بدموع الذنب من جهة ،ودموع الألم والفراق من جهة أخرى.

الجد: نعم بني، أصعب هم في الحياة هو هم السر ، وعمر كان يعاني من هذا الأمر لكنه رغم هذا سيتمكن من إخفاء السر لمدة طويلة ،أو ربما قام بدفنه بساحة مهجورة من قلبه ،ولا يتطلع إليه أبدا، إنه كان يعيش صراعا مفزعا بين واقعه وضميره، إنه يبحث عن مخرج و تبريرات تجعله ينسى ما حدث.

بينما هو يحاول فظ الصراع بين الاثنين تنادي زينب بصوت مرتفع: عمر..عمر.

يجيب عمر ما بك زينب هل أنت بخير؟

زينب : نعم أنا بخير لكن أخبرني من أين أتيت بهذين القرطين ؟ تصمت هنيهة وعمر يشعر بعاصفة داخله تسارعه بالكلام قبل رده :أتعلم أنهما جميلين جدا، قررت حفظهما لمنى.

عمر: {يتنهد عمر طويلا} :نعم زينب إنهما جميلين جدا ، والجوهر الذي رصعا به شد انتباهي أكثر.

زينب: أظن يا عزيزي أن ذوقك قد تحسن عن السابق {وهي تضحك}

عمر: لو كان ذوقي سيئا ما كنت اخترتك يا حلوتي.

ها قد عاد ليغزو بكلماته العذبة فكر زينب ليصرف نظرها عن الأمور السطحية الأخرى.

وفي اليوم الموالي كانت قد بدأت تحضيرات حفل استقبال منى الطفلة المدللة التي لم تبرح حجر والدها منذ ساعات كثيرة ،يخاطبها كأنها تعي ما يقول،سطر لها أحلام كأنها ابنة العقد العشرين ،لكن كل تلك الأحلام ذهبت هباء منثورا، ولم يبقى منها غير الذكريات التي كانت تألم عمر حينما يتذكرها، لكن

رغم ذلك لم يحاول مرة ليفتش قلب ابنته ويتعرف على آمالها وهي في عمر الزهور، لأنه قد انشغل بأمر آخر.

بعد التحضيرات الطويلة ها هو عمر وزينب يستقبلان الضيوف والهدايا التي توافدت إلى مهد الأميرة الصغيرة، ولم تكن منى في هذه اللحظة تتلذذ هذه السعادة، فإنها تحدق هنا وهناك كأنها تسأل من هؤلاء؟ ماذا يفعلون؟ أين أبي ؟ أين أمي؟ ثم فجأة تصيح بالبكاء كأنها وجدت إجابة قاسية من القدر، تحملها زينب وهي تردد: بسم الله بسم الله ما بالك طفلتي؟ وتضمها إلي صدرها أكثر، تهدأ الطفلة بعد أن لامست حضن والدتها وشمت عطرها، إنها الأم التي لا يأخذ مكانها أحد، وإن ذهبت أغلقت بوجهك أبواب الجنة لأن دعاء الأم أحد أبواب الجنة فالجنة تحت أقدام الأمهات.

مرَ حفل الاستقبال على أحسن حال وقد أكلت أنا أيضا كثيرا من الطمينة اللذيذة التي أعدتها زينب على الطريقة الغربية الرائعة، وما أحلاه ذلك الرقاق بمرقه الساخن والحار. خالد.... تمهل جدي أعلم أنك شعرت بالجوع إليك هذا البسكويت ،إنه لذيذ.

الجد: لقد حفظت عاداتي بسرعة يا بني.

نعم جدي لقد فهمت أنك تشعر بالجوع ما إن تتذكر طبخ زينب.

مرت أيام وأيام وكبرت منى الصغيرة وكبرت آمال والدها معها، إنه يعمل بكد بالدكان ليتمكن من ادخار مبلغا كافيا يؤمن به دراسة منى في أرقى المدارس الداخلية بالمدينة، ها هو اليوم في عيد مولدها الأول يفتح لنا دفتر توفير بالبنك، وحسابا بريديا خاصا لمصاريفها، كان عمر متلهف ليرى منى تكبر وتحقق آماله، كان يرى أنها ملاك السعادة الذي أنزل من السماء.

أما زينب فإنها كانت ترى منى صديقتها ورفيقتها البريئة التي تسمع ألامها وأفراحها مقابل ابتسامة وقبلة بريئة، وما إن يعود عمر لبيت تسرع إليه الأميرة، تتسلق ركبتيه لتصل أعلى رقبته إنها كانت تهوى أن يحملها بين كتفيها وهي تداعب ضفائر والدتها ويهرع بها عمر ، هكذا كانت منى تلعب مع والديها لتجعل حياتهما أكثر سعادة وفرح.

لكن أيها الجد مادام عمر يحب زينب هذا الحب ويعشق ابنته إلى حد الجنون، ما الأمر الذي غير حياة منى رأسا على عقب ليجعلها تصاحب الألم والحزن؟

الجد: لا تستعجل الثمر قبل أوانه بني، فتكون عاقبتك الحرمان.

نعم أنت محق جدي واصل لن أقاطعك مرة ثانية.

الجد يواصل حديثه، زينب كانت مشتاقة جدا لأهلها بالمدينة وكانت دائمة التذكر لهم، تحادث الصور تارة ، وتسرح بماضيها تارة أخرى، إلى أن في يوم من الأيام يهل عليها ضيف من المدينة وكان هذا الضيف صديقتها المقربة علياء هذه الفتاة التي غادرت المدينة خارج الوطن لتكمل دراستها الجامعية، وكانت صديقة زينب من أيام الإعدادي والثانوي، ولم تفترقا أبدا إلى أن قررت علياء السفر خارج الوطن، لأنها كما وصفتها زينب إنها فتاة حضرية طموحة تهوى الموضة، فلم ترد كبح فرامل أحلامها عند محطة الخياطة، بل تعدتها لأن تصبح مصممة أزياء مشهورة.....تمشي علياء بالقرية هوينا هوينا وهي تسأل عن بيت زينب إلى أن تجد غلاما يوصلها إلى وجهتها.

كانت سنوات الفراق كثيرة إنها تقارب ست سنوات فكيف لهما أن يتعرفا على بعضهما؟ تدق علياء الباب لتستأذن الدخول، ترد زينب من مكان بعيد حيث كانت مشغولة بتغيير الحفاظ للأميرة منى، من على الباب ؟ تفضل بالدخول.

تدخل علياء بهو المنزل وتقف لتنتظر ظهور زينب ، بعد دقائق تسمع علياء خلخال زينب الذي كانت تهوى ارتداءه دائما ، تقول علياء وهي تبتسم: فعلا إنه الصوت ذاته.

ها هي زينب تسلم على علياء : السلام عليكم أهلا بك أختي .

علياء: وعليكم السلام ، كيف حالك زينب؟

زينب: لم أعرفك بعد؟ هل أنت قريبة عمر؟

تجيب علياء: فتاتي كانت تهوى رنين الخلخال أكثر مما هوت قلبي.

تبتسم زينب وتجيب: هذا أنت علياء، كيف حالك اشتقت لك كثيرا.

علياء: وأشواقي لك فاقت زبد البحر يا صديقتي.

زينب : لكن متى عدت؟ وكيف عرفت مكاني؟

علياء: يقال أنه ما تاه صاحب اللسان ، ذهبت للدكان وسألت عمي أحمد وهو أخبرني بكل القصة التي حدثت معك أنت وعمر.

زينب: للأسف انقلبت حياتي للوجهة الأخرى فقط لا غير، في البداية كان الأمر صعبا لكن بعدما رأيت حب عمر وأهل القرية ورزقني الله منى عادت حياتي للنعيم من جديد، فقد كنت صغيرة مدللة أعيش بجنة والدي، والآن أنا ملكة أعيش بجنة زوجي.

علياء: لازلت تتمتعين بفلسفة ذاتها، أظنك مشتاقة لأستاذ الفلسفة أكثر مني؟

زينب: كفاك مزاحا يا علياء واتركي الذكريات تذهب لحال سبيلها.
قامت زينب للمطبخ لتحضر الضيافة لصديقتها ورافقتها علياء لتصدر ضجيجها كالمعتاد ، إنها ما بقيت هادئة يوما ، أينما حلت الفوضى كانت هي المفتعلة ،هكذا قالت عنها زينب.
تنشغل زينب بتحضير الغذاء وتستمر بالضحك على نكت علياء التي غالبا ما كانت تافهة ،فوضى الأشواق التي كانت بقلب زينب لن يهدأ من روعها غير جرعة من حكايات علياء.
أنهت زينب الغذاء وقد حضرت أشهى الأكلات التي تحبها علياء وها هي تحضر سفرة الأكل وتنتظر وصول عمر على أحر من الجمر لتعرفه على صديقتها ، طالما ما كان عمر يشاطر زينب الحديث عن صديقاتها وأيام الدراسة.
تسمع علياء دقات متقطعة بشكل طبول على الباب، قالت علياء: من هذا الذي يرى بابك طبلا تسري عليه نغمات عزفه؟
ضحكت زينب وقالت: إنه زوجي يا علياء من دقاته على الباب أستطيع أن أعرف مزاجه لنهار اليوم فإن هذا يعتبر شفرة بيننا ليتمكن كل واحد منا من مراعاة مشاعر الآخر.
علياء: أمر رائع...استعمال هذه الرموز بينكما يضفي نوعا من الفكاهة والمزاح بينكما.

تفتح زينب الباب لتجد عمر يدندن كعادته بأغنيته المشهورة { زينب للباب فافتحيه...ولعمر فضميه}

ما إن سمعت علياء هذا المقطع ضحكت إعجابا بهذه العلاقة التي باركها الله تعالى وتقول في نفسها :فعلا إنك محظوظة يا زينب بهذا الرجل.

لم تكن تعلم زينب أن حكايتها لعلياء عن زوجها عمر قد تنتهي بمأساة تكون هي ضحيتها الأولى ،دخل عمر المنزل وتعرف على علياء.

زينب:عمر تعرف إلى ضيفتنا إنها صديقتي علياء وصلت لتوها من المدينة.

عمر : أهلا بك يا علياء ، كيف حالك؟

أجابت علياء وهي تحدق بعيون عمر :أنا بخير عمر وسررت بمعرفتك .

تقطع زينب حديثهما لتقول: ستتعرفان على بعضكما لاحقا دعونا الآن نأكل لأن عصافير بطني تزقزق {نظرت بعمر وابتسمت كأنها كانت تتكلم على لسانه}

مر يوما رائعا باجتماع زينب وصديقتها تشاطرا الحديث طويلا، فتحا بوابة الذكريات ليقطفا من تلك الحدائق أزهى وأجمل لحظاتهما مع بعض، فهذه لحظات مع أستاذ الرياضيات التي

عشق الأرقام و تاهت بوصفه الأقلام، وذلك أستاذ الفلسفة أف كم كان كثير الكلام، وهذه أستاذة الأدب ننظم فيها مدح ود واحترام ، تقول علياء فعلا كانت أجمل أيام.

أسدل الليل ستائره ليخيم الهدوء على القرية، و انهال التعب على جسد علياء لتجد نفسها لا تقوى على السهر، ها هي زينب تأخذ بها إلى غرفة الضيوف التي صممتها مع عمر ترقبا لأي ضيف يأتي لزيارتهما ولم تكن هذه الغرفة كغيرها من الغرف، بل كانت أجملها وأروعها، وهذا ما أدهش علياء أيضا.

أمضت علياء ليلتها الأولى ببيت زينب بكل هدوء وراحة وطمأنينة، وزينب المسكينة من شدة شوقها لصديقتها أمضت ليلها وهي تراقب تقلباتها وبراءتها ، و أسفاه ما علمت المسكينة أن رفيقتها هذه هي العاصفة التي تريد هدم بنيان بيتها ،وتفكيك عائلتها ،إنه حسن الظن يا بني والنية الصافية التي تبعد الشكوك والظنون السيئة بشخص نحبه ونثق به.

في اليوم الموالي تستيقظ علياء على صوت بكاء منى الصغيرة ،هرعت إليها تسأل حالها، تضحك زينب من حال علياء وتقول: صباح الخير علياء..لا تقلقي إنها طفلة صغيرة تبكي لأتفه الأسباب.

علياء تتنهد طويلا: آه ....حسنا ظننت أنها سقطت أو أنها مريضة.

زينب: علياء لقد حضرت لك الحمام كما تحبين استحمي ريثما أحضر لك سفرة الفطور.

علياء:حسنا سأذهب ،واليوم أريد منك أن ترافقيني في جولة لأتعرف على القرية ،ممكن؟

زينب : حسنا سأرافقك بالطبع لكن لا نتأخر، حتى يسعني الوقت لإتمام الطلبات التي بيدي الآن.

بعد تناول الفطور تخرج علياء وزينب والصغيرة في جولة للقرية، وضمن هذه الجولة قامت زينب بزيارتنا تعرفنا على علياء، وتعرفت علياء على القابلة التي أخرجت منى لهذه الحياة، لم تدم زيارتها طويلا، لكن ذلك الوقت كان كافيا لألتمس روح الشيطان المضمرة بعيون علياء، التي كانت عيونها تتطاير بشرارة الغيرة والحسد والبعض، يا الهي ....تعظ يدا مُدت إليها ؟

لكن أيها الجد ، ما الأمر الذي جعل علياء تنوي على الخراب؟ ألم تكن تحب زينب ؟

الجد:يا بني غريزة الإنسان وطبيعته تجعله محبا لما في يد غيره، ويتطلع إليه بشدة وهذا ما يجعله يصر على نيله مهما كان الثمن ولا يفكر بالعواقب أبدا ، في هذه الحالة يا بني المشاعر الخيرة

تغفو وتستيقظ النفس الشريرة لتنفذ مطالبها ،حتى إن مرت على جسر من الضحايا فلا يهمها ذلك.

يا إلهي...هل هناك أشخاص يفكرون هكذا ؟

الجد: يا بني الغيرة لحاف من الشيطان إن لبسه الإنسان سيطر عليه ودفعه إلى إشباع رغباته الأنانية دون تفكير جدي بإمكانية استياء الأوضاع نتيجة هذا.

ناقوس الخطر بدأ يدق عتبة باب زينب لحظة رؤية علياء لعمر، أنا كنت أرى أن زينب هي المخطئة لأنها تركت فرصة لعلياء لتعرف عمر عن قرب أكثر.

بعد خمسة أيام تغادر علياء القرية وتعد زينب بتكرار زيارتها لها من وقت لآخر حتى لا تشعر بالوحشة والوحدة مرة أخرى، فرحت زينب لهذا الوعد الذي لم يكن بصالحها.

كانت علياء تبحث عن طريقة للتواصل مع عمر دون أن تعلم زينب بذلك، بحثت طويلا إلى أن وجدت عنوان محله بالمدينة، فبدأت تتردد إليه بين الفينة والأخرى بحجة أنها تريد شراء ملابس جديدة وتتفقد آخر ما خاطته زينب، لم يكن تعامل علياء مع عمر سطحي بل تعدى ذلك إلى عرضها صداقتها عليه، ثم تدريجيا كانت تأتيه بالغذاء الذي كان يمنعه من العودة إلى القرية ليتشارك الغذاء كعادته مع زينب ، وما إن سألت زينب عن

سبب ذلك، أجابها عمر أنه يعاني ضغطا بالعمل يجعله يأكل بالمحل حتى يستغل فرصة راحته التي تقدر بساعتين من الزمن في تلبية لوازم المحل وتفقد الفواتير وغير ذلك.

لا أعلم إن كانت هذه الإجابة نزلت بردا وسلاما على فؤاد زينب؟ أم أنً ثقتها العمياء بعمر جعلتها تتقبل الأمر بسهولة وتعرض النظر عن ذلك تماما.

لكن ما أعلمه يقينا هو أن عمر سلك طريقا مختلفا ، وأنه على وشك التغيير لأنه بدأ يفكر بعلياء وكلامها المعسول، ولباسها الفاخر، الذي من شأنه أن يسرق قلوب الملايين، عمر يشعر أن زينب دفنت في غرفة مظلمة من قلبه، والآن تسلط علياء ضوء شخصها على بقية القلب لتتسلط عليه تدريجيا، وزينب من الجانب الآخر تتلهف لزيارة علياء لها ،لم تترك علياء لزينب رقم هاتفها الخلوي ولا عنوانها بالمدينة وهذا ما كان يشعر زينب بالقلق أكثر، يا ترى متى تزورني علياء مرة ثانية؟ وأين هي ؟ وكيف حالها الآن؟

كل هذه الأسئلة كانت تتبادر إلى ذهن زينب ، وبقيت على الحال نفسه أياما عديدة، إلى أن جاء موعد لقاح منى، ففكرت زينب أن تمر على محل عمها أحمد لتسأله عن علياء، فأخبرت عمر بذلك

الأمر فقال لها لا داعي لذلك أنا سأبحث عن عنوانها لاحقا والآن عليك الاهتمام بمنى وفقط.

وافقت زينب على كلام عمر ، وفي اليوم الموالي غادرت للمدينة مع منى لتأخذ لقاحها في موعده المحدد، وفي هذا الوقت ترددت علياء إلى بيت عمر وأمضت معه يوما كاملا إلى أن عادت زينب فوجدتها بالبيت ،شعرت بسعادة عارمة، وكانت تظن أن عمر وفى بوعده سريعا وحضّر لها مفاجأة.

لم تكن تعلم زينب ما كان ينسج بغيابها ، فإنها بريئة تماما تفسر ما تراه ظاهرا فقط ولا تبحث عن المكنونات المضمرة أبدا ، شخصية سطحية تطفو على شخصيتها لتأسرها في الواقع الظاهر فقط دون غيره، كنت أسمع أن المرأة تتمتع بالحاسة السادسة تشعرها بخيانة زوجها، لكن للأسف حب زينب لعمر قتل هذه الحاسة بقلبها فلم تعد لتشعر بها.

والله فعلا كيدهن لعظيم، يخططون بطريقة شيطانية يعجز حتى الشيطان نفسه في وضعها، يا الهي..حينما تسطر الرغبة الشريرة على المرأة اعلم أن هناك عاصفة قوية لن ترحم كل ما وُجد أمامها.

حينما أفكر بحالة منى أشعر بندم كبير لأنني لم أخبر زينب بما التمسته في صديقتها، لعلي كنت أستطيع تحذيرها من هذه

العاصفة، لتأخذ تدابير وقائية، لكن للأسف لحظتها كُبل لساني وهربت حروفي من ذاكرتي ،وجدت نفسي تائها بشخصية علياء وكلامها.

هذه المرة أقامت علياء مع زيني فترة طويلة ، جعلتها فرصة لتتقرب من عمر ومنى أكثر وتتعرف على ميوله وتكشف عن خبايا شخصيته، وصلت نواياها الشريرة إلى تقليد زينب في لبسها وكلامها ومزاحها، كأنها كانت تنسخ شخصية طبقا لشخصية زينب، حتى لا يشعر عمر مستقبلا بغياب زينب فيراها بعلياء.

فعلا تصرفات علياء جعلتني أشك أنها لم تدرس الموضة ، بل أنها تلقت دروسا خصوصية في التفكير الشيطاني ، وخراب البيوت.

لم تتوقف علياء عند هذا الحد، بل أنها حاصرت عمر بوجودها الدائم، وكانت توصل البضاعة للمحل بدل زينب، لتقضي وقتا مع عمر وهما لوحدهما، وخلوة رجل وامرأة ثالثها الشيطان، استحوذت علياء على عقل عمر و شغلت تفكيره إلى أبعد الحدود، وكان يقضي وقته شارد الذهن بالبيت، يتأمل الصورة التي وضعتها علياء قصدا على طاولة التلفاز في الصالون ، ولم ينتبه عمر لتلك المشاكل والخلافات التي دخلت بينه وبين

زينب، فأصبح يصرخ بوجهها لأتفه الأسباب، ويعاتبها على أمور لا تستحق العتاب.

ليس هذا فقط ، بل إن عمر كان لا يأوي إلى فراشه ليلا أبدا وينام بغرفة الضيوف تارة وبالصالون تارة أخرى، لكن للأسف كل هذا لم يوقظ شيطان زينب ، لا بالعكس دفعها لطلب استشارة علياء وتدخلها بالموضوع، لتحاول إصلاح البين بينهما، لكن يا ترى هل ستفعل علياء ما تريده زينب؟ أم أنها ستفعل ما يمليه عليها فكره الشيطاني؟

فرصة من ذهب قدمتها زينب إلى علياء، وها هي علياء لا تتوانى في استغلال ذلك أبدا، سارعت إلى المحل وضمته بين ذراعيها تسأل عن سبب استياء حالته النفسية، وتطلب منه مشاركتها هذه المشاعر رُبما تجد حلا لها، يحدق عمر بعلياء طويلا ثم يقول: لا أعلم ما الذي جًد بحياتي؟ إنني أشعر بالتوتر ولا أستطيع النوم؟ ولا أقوى على البقاء مع زينب بالقرية ، لم أشعر بهذا سابقا منذ زواجنا، ولمَ أشعر به؟ إن كانت زينب ترعاني وترعى مصالحي فإنها نعم الزوجة والأم ، وتزوجتها عن قصة حب أيضا، لكن ما عدت أشعر بذلك الحب أشعر أنه اضمحل من حياتي واختفى وهناك غزو جديد يعلن اقتراب جيوشه قريبا، أف...حالة غريبة أشبه بدوامة لا أعرف نهايتها.

علياء: لا تهتم لكل هذا، الرجل بفطرته يهوى التغيير وأنت وصلت هذه المرحلة، عليك أن تجرب شيئا مختلفا رُبما يتحسن مزاجك.

عمر: صدقت بقولك علياء ،فعلا أحتاج للتغيير.

علياء{تعلي ضحكتها الشيطانية وتستغل الوضع أكثر لتتقرب من عمر فتضمه بين أحضانها بقوة هذه المرة، إنها المرأة....} ، يشد عمر بيدي علياء ويقول: شكرا لك لولا وجودك لمّا وجدت حلا لمشكلتي.

علياء: لا يهم عمر، أنا بجانبك دائما .

يشعر عمر بذلك السلام المزيف الذي التحف بنوايا علياء السيئة ،ويغادر المدينة متوجها إلى وهو يفكر مليا بكلام علياء، محاولا الكشف عن الشيء الجديد الذي قصدته بكلامها، ليتخلص من هذه الحالة.

لا يستطيع عمر أن يلاحظ نوايا علياء ، لأنه مغيب العقل تماما ، كأنها ألقت عليه تعويذة سحرية أو ما شابه ذلك، رجل لا يقوى على التفكير يسير بالدروب معتمدا على خريطة رسمتها حروف امرأة غريبة عنه ، ولا يعرف عنها شيئا، يزداد حيرة عمر وهو يبحث عن الشيء الجديد، إلى أن وصل إلى بيته ووجد زينب كعادتها تنتظره وهي تضع منى بين ذراعيها، زينب امرأة بسيطة

وعفوية لا تضع مساحيق التجميل على وجهها الملائكي، ولا ترتدي ملابس مغرية، ولا تكترث لأمر تسريحات الشعر الغريبة ،فإنها تجد نفسها أما وزوجة وامرأة مسؤولة، عليها عن غض النظر عن هذه الأمور التافهة لتتمكن من تأدية واجباتها على أكمل وجه، حدق بها عمر طويلا ثم توجه إلى مائدة الأكل تناول عشاءه بدون أن يتلفظ بحرف واحد، أو أن يلاعب منى كعادته، ثم غسل يديه وخلد للنوم، لم تجري العادة أن يتصرف عمر بهذا الشكل مع زوجته وابنته، يا ترى ما كان الأمر؟

باليوم الموالي يستيقظ عمر فرحا ، يستحم ويتناول فطوره بطرفة عين ، ثم يرتدي أجمل ما عنده ويستعد للخروج، مظهره ليوم يذكرني بنفسي حينما ذهبت لأطلب يد زوجتي، فكنت أنيقا جدا ، هذا ما يجعل لم المرء يدرك أنه هناك أمر ما طرأ على قلب عمر، هل يريد أن يخرج مع زينب إلى مكان ما؟ أم هو يريد أمرا مخالفا لهذا؟

ها هو بالمحطة المتواضعة أسفل القرية ، ينتظر الحافلة التي تقله إلى المدينة، في هذا الوقت أمسك بهاتفه الخلوي وأرسل رسالة ثم ابتسم، يا ترى ما كان مضمون الرسالة؟ ومن صاحبها؟ يا إلهي..أمره غريب اليوم أتمنى أن لا يؤذي هذا قلب زينب.

ركب عمر الحافلة شفتاه متوردة بابتسامة لا تكاد تختفي، يعدل قميصه، ويعيد تمشيط شعره، غريب...ها هو الآن يترجل من الحافلة ويتجه إلى بيت علياء، نعم إنها علياء صاحبة الرسالة، بلغها فيها أنه آت إليها ، ويريد اصطحابها في جولة نهار اليوم.

وصل عمر إلى بيت علياء لم يدق الباب ، بل بقي تحت شرفة غرفتها المطلة على الشارع، وبعث لها برسالة على هاتفها، تهرع علياء إلى الباب وتفتحه لتجد عمر يتوارى بين الأشجار التي كانت أما بيتها، إنه كان يظن أنه أحدا من عائلتها فتح الباب، تنادي علياء: عمر ...عمر تعال هذه أنا علياء.

يشعر عمر بالراحة والطمأنينة ويقبل إلى علياء، ليجد حورية ، لا بل أميرة أمامه، ترتدي أجمل الملابس، ووجهها مزين بمختلف أنواع الكريمات، ويديها ناعمتين، وشعرها الطويل يغطي كتفيها، ينبهر عمر لهذا المنظر ويقول: ما شاء الله إن الجمال نفسه اختفى من شدة جمالك.

علياء: ترد بخجل كفاك غزلا عمر، أعلم أنك لست بارعا في ذلك.

عمر:ما هذا ؟ أصبحت تتكلمين بالطريقة ذاتها التي تتحدث بها زينب.

علياء : نعم لقد كنت حريصة على تعلم أمور كثيرة من تلك الغبية، حتى أتمكن من الحصول عليك.

عمر : إنك مجنونة فعلا، وقد حصلت على ما أردت فعلا، لم أدرك حبي لك إلا بعد قولك أنه علي تجربة شيء جديد ومختلف، أدركت أنك تقصدين أن أترك مجالا لقصتنا علياء، أليس كذلك؟

علياء: فعلا هذا ما قصدته تماما، وكنت أعلم علم اليقين أنك ذكي كفاية لفك شفرة كلماتي.

كان هذا اللقاء الأول لعمر وعلياء بعيدا عن أنظار المارة والزبائن، اسطوانة من الغناء الكلاسيكي تخترق سمع عمر، وأخرى رائحة الدجاج والمرق تقتحم أنفه ، نعم إنها علياء أعلنت الحرب على زينب وها هي تشن هجومها الأول بكل تميز وجدارة لتستعمل أسلحة فتاكة فعلا، من شأنها أن تمحي اسم زينب من مخيلة عمر، لا بل تستطلع أن تنسيه اسمه هو الآخر، أصبح مجهولا يسبح بفضاء علياء، يا إلهي علياء امرأة قوية ، احتلت الصدارة بين النساء الخبيثات ، صحيح جميلة هي ، عصرية ، متحضرة لكنها ساحرة ماكرة و صديقة خائنة ، لا تستحق أن يقال عنها امرأة، لأن المرأة تشعر لألم امرأة أخرى ولا فكر في أذيتها بهذا الشكل خاصة إن كانت أقرب الناس إليها،

وهنا زينب ترعى القطيع وهي تحمل على ظهرها منى ومطمأنة البال تماما تظن أن زوجها ملاك لا ينظر لغيرها، أو أنها لا تعرف خبث النساء.

أصعب موقف قد تعشيه المرأة حينما تدرك أن الرجل الذي تحب يخونها، هنا تشعر أنها قد كسرت وأصبحت عرضة للذئاب لأنه لا ظهر ولا سند لها يحميها، فالمرأة لا ترى الزوج رجلا وفقط بل تراه الأمان والسلام والسكينة والطمأنينة، لهذا خلقها الله تعالى من ضلع الرجل لتبقى تحت حمايته ورعاية، فمهما استوى عود المرأة، و استقام لسانها، ونضج عقلها، إلا أنها تبقى ناقصة دون رجل، إذن ما بلك زينب التي كانت تجد عمر الأب والزوج والأخ والصديق، كل هذا يندثر للحظة واحدة، لحظة رغبة جائرة عابرة لا تستحق أن تكتب بقصتهما، يا إلهي...تلك القصة الطاهرة النقية التي جمعت بين عمر وزينب تدنس اليوم بأبشع الطرق، كان يوما جميلا بالنسبة لعمر وعلياء لأنهما استهلا كتابة قصتهما التي لطالما اعتبرتها علياء ضربا من الخيال عليها إمساكه ،لأنها امرأة صارمة لا تعرف الاستسلام وإن أقبلت لنيل شيء ما لن تدبر عنه حتى تناله.

بعد مغامرة اليوم التي خاضها السيد عمر مع علياء، يعود لبيته كغير عادته متأخرا وكانت الساعة يومها تقارب الثانية بعد

منتصف، يدخل عمر متباطئ الخطى حتى لا يصدر ضجيجا يوقظ زينب ومنى، لكنه لم يكن يعلم أن زينب لم يغف لها جفن طيلة فترة غيابه ولم تتناول العشاء أيضا لأنها لا تستطيع أن تأكل دون عمر، تعجب عمر عندما وجدها جالسة تنتظر عودته، سألها: ألم تنامي بعد؟ الساعة متأخرة من الليل. تجيب زينب: أعلم ذلك لكني لم أستطع النوم ولا الأكل بغيابك.

عمر: حسنا حسنا لقد عدت الآن وأنا بخير اذهبي وكلي شيئا، ثم اخلدي للنوم، سأشق على منى وأعود.

علمت زينب من الرد البارد لعمر أنه قد تناول العشاء خارجا ، ذهبت لتأكل لكنها لم تستطع على مضغ لقمة واحدة ، إنها تشعر أن حواسها أخذت عطلة، ظنت أنها لا تشعر بالجوع، لم تدرك أن هذا الشعور هو تنبيه لما يحدث وراء ظهرها، فصديقتها المقربة تخونها ، والأبشع من ذلك عمر استسلم لذلك.

مرت أيام على الحال ذاته، تلتقي علياء عمر خلسة عن زوجته بمنزلها، وكانت كل مرة ترمي بشباك أقوى من الأولى، إلى أن وجد عمر نفسه تائها بين هذا وذاك، ولا يستطيع أن يختار، الآن حياته الزوجية على المحك، ولم يهتم بالأمر، لأنه يشعر بنشوة السعادة التي جعلته ينسى أمر عائلته، أصبح رجلا أنانيا يفكر

مثل علياء، وإنها قد جردته من إنسانيته وأخلاقه فأصبح رجلا آليا رهن إشارتها وفقط.

بالتدريج بقيت علياء تضاعف جرعات سحرها على قلب عمر، وانتظرت اللحظة المناسبة لتجعله يتخلى عم زينب ويعيش معها وحدها، إنها امرأة متحررة لا تحب الشريك بأي أمر يخصها ، في حين عمر لم يعد يقوى على مفارقتها لحظة واحدة، أيضا هو الآخر بدأ يفكر في حل ما يجعل علياء بجانبه دائما وأما عينيه دائما، لكن الفرق بين تفكير علياء وعمر هو أن علياء كانت تنوي إخراج زينب من القرية وحياة عمر بشكل نهائي، أما عمر فإنه كان يفكر في زواجه الثاني مع الإبقاء على زينب.

إذن ماذا أقول في رجل كهذا ؟أنا متأكد أنه لو قال الأمر هذا لزينب لكان جوابها كآتي:{ لا بأس زوجي العزيز المرأة تعشق واحد...والرجل غريزة وفطرة حلال عليه أربع نساء} نعم هذا سيكون جوابها لأنها تربت بعائلة تعترف بقيم الدين الإسلامي وتتقبل الأمور كما هي بحجة أنها قضاء وقدر، وهي أحسن مما قُدر أن يحصل، إنها ترى بالبلية دواء ، و السم شفاء، ولا تشك ببراءة النساء، أف...كيف لك أن تقنعها الآن ببشاعة ما يحدث وراء ظهرها، هذا السبات الذي دخل فيه قلبها البريء لن يزول إلا حينما تهب عاصفة قوية تقتلع كل ما أمامها.

اليوم ثلاثة أيام بعد الاحتفال بالعام الثاني لمولد منى، كانت تفكر علياء بأن تقدم هدية لمنى، ولم تجد هدية أوى من الضربة القاضية التي ستوجهها اليوم لوالدتها، بعد صلاة الظهر بقليل تستعد علياء للخروج من البيت وهي بأبهى طلة، أرسلت رسالة لعمر تخبره أنها متوجهة للبيت ويجب عليها اللحاق بها لأنها اليوم سنفكر بطريقة ما للتخلص من زينب بشكل نهائي، رد عليها عمر برسالة أخرى يقول فيها أن سيفرغ من العمل الذي بين يديه ويلحق بها.

غادرت علياء المنزل وهي سعيدة، لأنها أخيرا ستنفذ القسم الأخير من خطتها، أو كما كنت أراه أنا الهجوم الأخير، هذا الهجوم الذي سيدمر كل شيء ، سيدمر حب أهالي القرية لعمر، سيدمر سمعة عمر وعائلته، ويدمر فؤاد زينب وابنته، أيعقل أن يكون عمر غبيا لهذه الدرجة؟ يخاطر بكل هذه الأشياء لإرضاء رغبة امرأة شريرة نظرت لعائلته نظرة الحسود، ألم أقل لك بني أن الإنسان دائما يسعى لما في يد الغير ولا يهتم بما في يده، الإنسان طماع بطبيعته لكن عليه أن يسطر على هذه الطبيعة، وإلا ستقود به للهلاك، أنهى عمر أعماله وغادر إلى المنزل، ما غن دخل البيت وجد علياء وزينب ترتشفان القهوة معا ومنى تلعب أمامهما، ألقى التحية عليهما وسلم على علياء كأنه لم يرها منذ مدة طويلة،

وزينب صدقت ذلك المشهد، تقول زينب لعمر : أتريد أن أحضر الحمام؟

تومئ إليه علياء برأسها ليوافق كلام زينب.

أجاب عمر: نعم أنا بحاجة للاستحمام ،كان يوما شاقا بالعمل.

فعلت علياء هدا حتى يتسنى لها أن تكلم عمر على انفراد وتخبره بالخطة، لقد قررا أن يخرجاها من البيت بعد العشاء مباشرة ، سالت علياء عمر عن أوراق الطلاق قال لها: أنا لا أريد أن أطلقها يكفي أن تختفي من حياتنا وفقط.

أجابت علياء: أيعقل هذا؟ تريدها أن تبق على ذمتك؟

عمر: يكفيها جرح واحد فقط ولا تنسي أنها أم ابنتي منى ، فكيف لمنى أن تلقى احتراما بين الناس إذا كان والديها مطلقين.

أجابت علياء : ومن قال لك أنني سأسمح لها بأخذ منى؟ يستحيل ذلك .أنا أريد الاستيلاء على كل المملكة وليس جزء منها فقط.

عمر: لم نتفق على هذا الأمر .

علياء: يا ترى وهل تستطيع العيش دون منى؟

عمر : بالطبع لا أستطيع، حسنا كما تشائين .

تنادي زينب عمر للاستحمام، وتذهب للمطبخ لتبدأ بتحضير العشاء، ترافقها علياء وتُصر على أن تطبخ بنفسها، فوافقت

زينب على طلبها،{ يقال أن المرأة التي تسمح لامرأة أخرى باستيطان مطبخها فإنها تسلمها بالتأكيد مفاتيح قلب زوجها }، وهذا ما فعلته زينب دون تشعر في اليوم الأول حينما سمحت لها بالطبخ داخل مطبخها.

أعدت علياء عشاء ملكيا رائعا، تفوح منه رائحة عطرة تجعلك تشعر بزلزال داخل بطنك وليس جوعا فقط، تحضر زينب السفرة وتضع علياء العشاء وتنادي عمر لينضم إليهما لتناول العشاء، ينبهر عمر لجمال هذه السفرة التي بها كل ما لذً وطاب ، إنه عشاء وداع محترم، أول مرة بحياتي كلها أرى القاتل يتشارك الأكل مع ضحيته قبل هجومه، تحمل زينب منى بين ذراعيها لتطعمها قليلا لكن تأبى الصغيرة أن تأكل لقمة واحدة، تقول علياء: تناولي عشاءك واتركيها لقد تناولت الحليب لتوها ، لهذا هي لا تشعر بالجوع. تجيب زينب: حسنا لم أنتبه حينما أعطيتها الحليب ، شكرا علياء.

علياء: لا تشكريني إنها ابنتي أيضا.

زينب : إن كنت أطمئن على منى مع شخص مع عمر، فإنه معك أنت علياء.

تناولوا العشاء وقامت علياء بتنظيف السفرة، إنها تتصرف كأنها صاحبة المنزل ، نعم ستكون كذلك بعد ساعات قليلة، يتطلع

عمر بعيون زينب وهي تراقب منى وحركاتها الطفولية ، فإنه الملاك الصغير الذي لا يعرف ما يحدث في هذه اللحظة، سطرت آمال وأحلام جديدة أصبح للأميرة منى شريك فيها بقلب والدها، يقوم عمر إلى غرفة نومه ليلملم بعض الحاجيات الضرورية التي تحتاجها زينب لتأخذها معها.

إذن اللحظة الحاسمة ها هي علياء تجلس قرب عمر ، ويتبادلان الكلام بإيماءات من عيونهم ، ثم فجأة يقوم عمر ويأتي بالحقيبة ، وتأخذ علياء منى إلى غرفة نومها، يقدم عمر الحقيبة لزينب ويقول: آسف زينب لا أستطيع أن أعيش معك أكثر من هذا لأن هناك شخص آخر قد استولى على قلبي.

زينب: أيعقل هذا؟ أتمازحني أم ماذا؟

يجيب عمر وهو يضع يده على كتف علياء: بالطبع لا يا عزيزتي، إنها الحقيقة أنا أحب علياء وسأتزوجها، وإن بقي من كرامتك لو قليلا اغربي عن وجهي ولا تعودي إلى هذه القرية مجددا.

اغرورقت مدامع زينب وها هي تخطو خطوات باتجاه غرفة منى، تعترضها علياء وتقول: المملكة أصبح لي بكل ما وجد فيها إذن غادري الآن .

حاولت زينب مرارا وتكرارا لتدفع علياء يعيدا وتأخذ ابنتها لكن عمر كان أقوى ودفع بها خارجا.

ليلة باردة مثلجة ، وعواصف لا تهدأ، شوارع خالية ، يخيم الهدوء ولا صوت تسمعه غير خرير المياه من وادي القرية، كأن السماء أعلنت غضبها على عمر وعلياء ليلتها.

لملمت زينب حقيبة كرامتها وشرفها وغادرت المنزل بل أنها غادرت القرية كلها، نتيجة هذا الجرح وخجلا من أهل القرية لم تذهب زينب إلى إحدى جاراتها ، إنها لتحافظ على صورة عمر لم تأت لبيتنا نحن أيضا .

لقد وضع عمر بحقيبة زينب رسالة ، وضح فيها بعض الأمور كعنوان أختها أمل وزوجها، واعترف لها أيضا بموت والديها الذي أخفاه منذ ولادة منى، لكن وسط هذا كله كانت زينب تتطلع إلى حروف أخرى من الجهة الخلفية للرسالة ، ربما تجد اعتذارا من عمر عما فعله معها الليلة الماضية، لكن للأسف خاب أملها ولم تلق غير الفراغ والبياض بالورقة.

مرت أيام طويلة على غياب زينب لا نعلم ماذا فعلت وأين ذهبت ؟ لأن علمنا بالقصة توقف هنا يا بني، فإن زوجتي بعدما لاحظت تردد علياء للبئر لتستقي ، أرادت أن تستفسر عن زينب ،ظنت أنها مريضة، لكن حينما سألت علياء أجابتها بطريقة فظة جدا: الغبية رحلت وهذا ليس مكانها بل مكاني وقد أصبحت

زوجة عمر وأم منى، لذا لا تسألي عنها مجددا واغربي عن وجهي.

هذا الخطاب القاسي من شأنه أن يكشف لنا أن زينب لم تغادر بإرادتها، بل أُرغمت على ذلك ، وبعد شهرين من الحادثة ذهبت لعمر لأسأله عن الأمر، فرفع عباءة الكذب عن الحقيقة وأخبرني بها كاملة لكن لم يكن بيدي شيء سوى أن أراقب منى من هذا الجبل وهي تكبر أما عيني، لا أعلم ما الذي حل بزينب بعدها لكن ما أعلمه هو أنها كانت تخفي سرا عن عمر ، لمحت عنه لزوجتي حينما قالت ستكتمل الفرحة وتكبر العائلة قريبا، لم نفهم ما كانت تقصده ، لكن كنا نسأل الله أن يحفظها ويرعاها أينما كانت.

إذن يا بني هذه هي قصة زينب وعمر وكيف بدأت معاناة منى مع زوجة أبيها التي كانت صديقة أمها المقربة ، أنرتاح قليلا ؟ أم نكمل طريقنا؟

لا لا أيها لقد قطعنا شوطا كبيرا من القصة لا تتوقف ، بعدما زدتني فضولا لأتعرف على منى وقصتها.

حسنا بني سنأخذ استراحة لنتناول العشاء من يدي البرعم خالد ثم بعد ذلك نوصل القصة ونحن نرتشف الشاي، لأنني لم أعد أقوى على التحمل فحينما تفرغ معدتي يتوقف عقلي عن التفكير ،

و يعجز لساني عن التعبير، حسنا يا جدي نأخذ استراحة، سأذهب لأغتسل وأعود.

في هذه اللحظة يحضر الصغير خالد عشاء متواضع لكنه لذيذ، أظن أنه ألذ بكثير من طبخ علياء وزينب لن أندم أبدا لزيارتي هذه القرية، لأنني أول مرة أريد أن أشق طريقا للخير لأعيد الفرحة لأحدهم وهذا أسمى ما وجدت من أجله الإنسانية.

وضع خالد العشاء وها هو الجد يأكل بشراهة كبيرة يخاطبه خالد: رويدك جدي قد تختنق.

الجد: ومن يختنق من هذا الأكل الطيب أيها الصغير.

خالد: أعلم أنك تجاملني كعادتك...لأنه ككل مرة نسيت وضع الملح.

الفصل الثاني

انهيار

بعد تناول العشاء اللذيذ الذي حضره خالد يستهل الجد كلامه من جديد ، لكن هذه بنبرة صوت مرتفعة وقوية، أظن فعلا امتلأت بطنه وفكت ربطة لسانه، يلاحظ ابتسامتي التي حاولت إخفاءها فيقول:

ما بالك بني؟ أتضحك على حالي؟ إنني شيخ طاعن بالسن لا يحركني غير الفيتامين و الحديد، ولا أجد هذه العناصر إلا بأكل حفيدي خالد، ثم ينظر إلى خالد ويعانقه ويبتسم : والله خالد إنك هبة من الله تعالى وآخر ذكرى من ولدي ـ رحمه الله ـ

رحمه الله يا جدي ، خالد يحمل الكثير من طباعك في كل صورها، حفظه الله.

الجد: حسنا بني ، اترك خالد جانبا ولنعد إلى منى الصغيرة.

تفضل جدي ، آذاني صاغية لك.

الجد يواصل كلماته وقد حجز دمعاته الرقراقة بعيونه، نبرة صوته الحزينة جعلتني أدرك أنني سأسمع قصة أحزن من قصة زينب، وهذا ما جعلني أصغي باهتمام أكثر، يقول الجد: منى هذه الصغيرة التي غادرتها والدتها وهي تبلغ من العمر سنتين، لم تكن تعلم منى أن علياء ليست والدتها، لأنه في السنوات الأولى من زواج علياء وعمر ، كانت تحيطها ببعض من الاهتمام لكن لا يسعنا أن نقارنه باهتمام وحرص والدتها الأصلية، فإنها كانت

ترى أن هذه السن حساسة جدا للطفل وعليها أن تهتم لأمرها لتتفادى الكثير من المشاكل التي قد تتوسط بينها وبين عمر، إنها في هذه الفترة كانت تتجنب التعثر بالدروب الوعرة التي من شأنها أن تُولد عقبات في طريق نمو علاقتها مع عمر، الآن هي تفكر بطرق لتثبت وترسخ هذه العلاقة أكثر ، يا ترى ما الذي تنوي فعله ؟

إن شيطان لا أترقب منه حنانا كالذي تقدمه علياء لمنى، هذا ما يجعلك تشك بأمرها إنها تريد أن تستحوذ قلب منى أيضا، فإنها فتاة صغيرة بريئة ستصدق كل ما يقال لها ، إذن كانت علياء ترعى القطيع وبرفقتها منى لكنها دائما كانت تكرر، يوما ما سأتخلص من هذا القطيع وأعيش ملكة تنفذ طلباتها حينما أطلبها، لم تتقبل علياء حياة عمر عل حالها ، فكانت بعد عودة عمر من المدينة يجدها ترتدي أجمل ما عندها، وسرحت شعرها ،إنها تبدو كأنها تستعد للخروج، نعم كانت تريد أن تتناول العشاء رفقة عمر بإحدى المطاعم الفاخرة الذي رأت إعلان افتتاحه مؤخرا بالجريدة ، تقول لعمر: أهلا عزيزي كيف حالك؟

يرد عمر وهو ينظر إليها من رأسها إلى قديمها: كنت بخير والآن أنا على أحسن حال.

تضحك علياء وتقول: دعك من الغزل الآن ، خذ حماما سريعا لقد حضرت لك بدلتك السوداء الأنيقة والحذاء الذي اشتريته مؤخرا، آه..ولا تنسى أن ترش القليل من ذلك العطر الفرنسي يا عزيزي.

عمر: بدون أي سؤال أو اعتراض، ينفذ ما طلبته علياء ، ألم أقل لك أنه أصبح رجلا آليا ؟

ها هو عمر يخرج من غرفته بمظهره الأنيق، الذي يخطف الأنظار، يتوجه حول باحة المنزل ظنا منه أن علياء حضرت له سفرة عشاء رومنسي تحت النجوم، لكن خاب ظنه ولم يجد ما كان يتأمله.

ينادي علياء ويقول لها: ما الذي تنوين فعله؟ كنت أظنك حضرت عشاء رائعا مثل........

تقاطعه علياء قبل أن يكمل جملته : أعلم عززي أن أحدهم علمك هذه العادة، لكن أصبح مجرد ظل غير موجود بحياتنا، احتفظت ببعض التفاصيل لكن أضفت لها لمستي الخاصة لتكون مختلفة فقط.

ألم أقل لك سابقا أنه عليك تجربة أمر مختلف؟

عمر: فعلا صدقت فالتغيير ضروري للحياة، لكن يا حلوتي ،أين سنذهب ؟ فنحن نعيش بقرية متواضعة ليس بها مطاعم أو أماكن مخصصة لمثل هذه الأوقات.

علياء: عزيزي الساعة الآن التاسعة مساء ، وبهذا الوقت المدينة تعيش ضجيجا رائعا يأسرك بين شوارعها، وأضواءها الملونة، إذن انتظر قليلا فقط وستجد نفسك بالمدينة.

لم يفهم عمر ما كانت تقصد علياء، لكنه جلس على الكنبة منتظرا بفارغ الصبر ما الذي سيحدث.

ما هي إلى دقائق معدودة، يسمع صوت سيارة يتفقد الأمر من النافذة فيجدها سيارة الأجرة، فهم الآن أن زوجته هذه لا تستلم للواقع وتريد أن تمزج الحياة القروية بالحياة المدنية.

تخرج علياء من غرفة منى وتقول :هيا بنا عزيزي سنتأخر عن الحجز، منى نامت وتركت معها ابنه جارتنا عائشة.

يرد عمر حسنا هذا أفضل لأطمئن عليها أكثر، تمسك علياء بذراع عمر ويخرجان منظر نجوم سلطت عليهم الأضواء، كل هذه الأمور جعلت زينب تتلاشى من ذاكرة عمر، فإنه لم يذكرها منذ زواجه الذي مضى عليه ثلاثة أشهر الآن.

تشق السيارة الطريق بأنفاس عالية سريعة، كسرعة البرق وها قد انتهى بهم الأمر عند باب مطعم فاخر، يستقبلهما عامل الاستقبال بطريقة لبقة ومهذبة و فتقول علياء:

حجزت طاولة عبر الهاتف اليوم.

يجيب عامل الاستقبال: باسم من يا سيدي؟

تجيب علياء: باسم الثنائي الحضري {علياء وعمر}.

العامل:حسنا سيدتي أهلا بكما، تفضلا معي لأوجهكما إلى الطاولة.

يمشي العامل وتتبعه علياء وعمر ، ها هما قد وصلا إلى طاولة ملكية ، مغطاة بغداء أبيض مزين بنقوش ذهبية، ووضعت على الطاولة ورود مبعثرة على كامل المساحة، وشموع ملونة ، وقطع من الحلوى ملفوفة على شكل قلوب، فعلا إنه عشاء رومنسي كما توقعه عمر لكن على الطريقة الحضرية الملكية ،فعلياء كانت تطلب وفقط، وطلباتها تنفذ على الفور.

بعد برهة جاء إليها النادل ليسأل عن قائمة العشاء. تجيب علياء بصوت يعتليه التفاخر والتكبر:

أريدك أن تأتينا بعشاء ملكي فاخر لا ينسى.

كانت هذه العبارة هي الشفرة التي اخترتها علياء لقائمة العشاء الذي حددته على الهاتف خلال الحجر.

النادل: أمرك سيدي، دقائق ويجهز طلبك.
بعد لحظات مضت كان كل واحد منهما يتأمل الآخر ، يقطع النادل هذا التأمل ليضع على الطاولة ما طلبته السيدة ، أعني علياء، بعد الانتهاء يسأل النادل: هل تريدان شيئا آخر سيدتي.
تشير علياء بعلامة من يدها ليغادر النادل ، لم تكلف نفسها لشكره حتى ،متعجرفة فعلا ، كانت تتلذذ بشعور السيطرة ، وتريد أن تكون هي الآمر والناهي، ولا اعتراض لطلباتها، هكذا كانت تسعى لجعل حياتها، تحاول أن تطبق أفكارا تعرفت عليها بخارج الوطن على حياتها البسيطة هذه، إنها تتشاءم حينما نقول أنها حياة بسيطة، آسف إنها حياة مثالية الآن هي موضع تجريب ما رأته علياء بشكل نظري تريد أن تجعله تطبيقيا وواقعيا إلى أبعد الحدود.
أتعلم بني علياء أيضا لها جانب مظلم من حياتها، كانت تتهرب من ذكره وتذكره دائما، رُبما هذا ما جعلها تصبح بالسوء هذا ، خاصة أنها عاشت طفولة مشوهة لم يكن بها أفراح وسعادة كغيرها من الأطفال، لأن الحرمان غالبا ما يجعل الإنسان قاسي القلب وأنانيا لا يفكر إلى في طريقة تجعله يتخلص من ذلك الواقع المشؤوم ويرسم السعادة على صفحات حياته من جديد.

أيها الجد ، إنك تجعلني أشعر بفضول أكثر تجاه هذه القصص المتداخلة.

الجد: نعم بني إنها قصص متداخلة مع بعضها، وفي الأخير ضحيتها تبقى واحدة وهي منى.

نعم يا جدي الضحية لم تتغير أبدا، إن كانت علياء تعاني من اضطراب نفسي جعلها تطمع بحياة غيرها، وتبني سعادتها على تعاسة الآخرين، وغباء عمر واستسلامه لرغبة عابرة وهدمه بيته، ومغادرة زينب بين والديها وتضحيتها لأجل عمر، كل هذه الأحداث تنتهي بنا إلى ولادة منى ومعاناتها مع زوجة أبيها، لكن يا جدي ، ما هو هذا الجانب المظلم الذي عاشته علياء؟

الجد: أنا لا أعلم الكثير عن قصة علياء، غير ما رويته لي زينب حينما سألتها عن والدي علياء.

هل لك يا جدي أن تقص لي ما رويته زينب؟ أريد فقط أن أحيط بكل جوانب القصة، فالطبيب لا يستطيع علاج المرض إلا أحيط بالكل الأعراض التي يعيشها المريض.

الجد : من مصور أصبحت فيلسوفا الآن وتتكلم بالأمثال والرموز.

نعم جدي إنني أحاول أن أسقي بستاني الذابل بقليل من أفكارك لعله ينمو ويزدهر.

الجد: حسنا لا مانع لدي ، لأقول لك ما رويته زينب عن حياة علياء ، ثم بعد ذلك نعود إلى حياة علياء وعمر ومعاناة منى.

يضحك خالد ويقاطع حوارهما ليقول: جدي باشر بقصة علياء ريثما ينتهي عمر وعلياء من عشاءهما الرومنسي، غادر حتى لا تكن مصدر إحراج.

إنه يمزح كعادته ليبدد أحزان الجد التي أيقظتها من قيلولتها هذه القصص، إنه يحرص على صحته النفسية قبل الصحة الجسدية، أمر رائع فعلا....طفل صغير في هذا السن يستطيع أن يساير شيخا كبيرا ويسعده ويحافظ على صحته ، إنه فعلا كما قال الجد هبة من الله تعالى.

يواصل الجد حديثه عن علياء وحياتها فيقول: طفولة علياء ليست أقل قسوة من حياة منى، لكن الاختلاف بينهما طفيف جدا ، فعلياء كانت معاناتها نشأتها بين أبوين مطلقين وعندما كبرت قليلا وجدت نفسها وسط عائلة غذاءها مشكلة، وعشاءها مصيبة، أجزاء ثائرة لا تهدأ ، أم متسلطة تمارس سلطتها على ابنتها كأنها خادمتها، وتوجه عكس هذه المشاعر إلى ابنها المدلل من زوجها الثاني، كانت علياء تتساءل: هل والدتي تضمر حبها وتعاملني عكسه فقط لأن زوجها ليس أبي؟ أم أنها فعلا باردة الشعور نحوي؟

لم تجد علياء أجوبة لأسئلتها وبقيت تعيش مع حيرتها هذه مدة طويلة، تراقب استعباد زوج أمها لوالدتها، الذي كان مدمنا على شرب الخمر وعندما يأتي للمنزل يضرب والدتها أمام عينيهما، هذا المشهد القاسي جعل علياء تنشأ وسط جو متوتر لم يعلمها سوى القسوة والأنانية ،وفي الجانب الآخر من حياة علياء نجد والدها الذي لا يكترث لأمرها كثيرا لأن والدتها تمنعه من زيارتها فإنه لم ير علياء منذ طلاقه من زوجته وقدرت الفترة حينها بسنتين ونصف، والآن علياء تبلغ من العمر خمسة عشرة عام فهي تعي ما تفكر به وما تطمح إليه، إنها تحاول أن تجد فرصة للهروب من البيت والذهاب إلى بيت والدها ، الذي لم تكن حياته أيضا تسري على وتيرة مناسبة لتهدأ عاصفة علياء، لكن كانت علياء تجد العيش مع والدها البيولوجي أكثر أمانا من عيشها مع زوج أمها السكير، هذه الفتاة الصغيرة التي عاشت روتينا قاسيا حيث أنها تباشر الأعمال المنزلية بعد عودتها من المدرسة ، وتلبي كل طلبات أخيها الصغير المدلل الذي يبلغ من العمر سنتين ، تارة تغير الحفاظ ، وتارة تطعمه ، وتارة أخرى تلعب معه حتى يتوقف عن البكاء، لم تكن علياء سعيدة بهذا الوضع لأنها كانت تعيش ضغطا كبيرا بين عملها بالبيت ودراستها، وأوضح لك أيضا في هذه الفترة لم ترافق علياء منذ

بدايتها الدراسة غير رفيقتها زينب التي كانت تعيش حياة عكس حياة علياء بشكل واضح، وكانت زينب تأخذ علياء معها للبيت للمذاكرة لأنها كانت تعلم أنها لا تستطيع المذاكرة ببيتها، وكانت تريدها أن تتألق بسماء النجاح، فقدمت لها المساعدة في ذلك، لكن ربما الحالة النفسية التي كانت تعيشها علياء داخل منزلها جعلتها تفكر وترغب في خطف شخصية زينب لتعيش حياتها ، وهذا أيضا متوقع حدوثه حينما يقارن الإنسان سوء أوضاعه بأوضاع الآخرين، ما يضاعف رغبته في عيش حياتهم والتخلص من حياته.

آه ..أيها الجد قصص غريبة تستحق أن تكون مسلسلا دراميا فعلا.

الجد : نعم هذا ما لاحظته أنا أيضا، وقبل أن نحكم على تصرفات الآخرين علينا دائما أن نفتح جزء من شباك حياتهم لنتطلع إلى حياتهم، نعود بني إلى علياء ، إنها تغلق باب غرفتها بإحكام بعد عودة والدتها من العمل، ونوم المدلل ، إنها تفكر في طريقة تسهل عليها الخروج من البيت دون أن يشعر بها أحد، وها هي تجد فرصتها الذهبية حينما سمعت والدتها تقول على الهاتف : حسنا سآتي رفقة زوجي وعائلتي مساء اليوم لحضور الحفل بالتأكيد.

إذن هي الآن تنتظر خبرا من والدتها وأوامر جديدة، ما هي إلا دقائق تدق والدتها الباب : افتحي علياء هذا أنا أمك.

تنهض علياء من مكانها وتفتح الباب لوالدتها ، وتقول: أهلا أمي، لقد أممت كل الأعمال المنزلية، والآن علي مراجعة دروسي استعدادا للامتحان النهائي.

ترد عليها والدتها: حسنا ركزي على دروسك ، اليوم سأخرج ووالدك لحضور حفل خطوبة ابنة زميلتي بالعمل، ولتتفرغي للمراجعة سآخذ الصغير معي.

وأخيرا البوابة الرئيسية فتحت أمام علياء لتغادر المنزل ولا تعود إليه مرة ثانية ، ترد على والدتها: حسنا أمي بلغيها تحياتي ، وأتمنى أن تستمعي بوقتك، تصبحين على خير.

تخرج الأم من غرفة علياء وهي تردد وصاياها كالعادة: أغلقي الباب بإحكام، ولا تفتحي لأي أحد، وتفقدي الغاز.....إلى غير ذلك من التوصيات الوقائية التي اعتادت علياء سماعها وتنفيذها بطريقة آلية.

تخرج علياء حقيبتها الصغيرة التي وضعت فيها أشياءها الضرورية ، إضافة إلى محفظتها المدرسية وكتبها، ولم تنس أيضا أوراق تسجيلها للامتحان، لأنها تفعل كل هذا لتشق طريقا

مختلفا نحو مستقبل زاهر ، وهي متأكدة أنه لا مجال لذلك دون طلب العلم.

اللحظة الحاسمة ، تخرج علياء من بيت والدتها وتحكم إغلاقه ثم ترمي بالمفاتيح تحت الباب، ولم تتهاون علياء في كتابة رسالة لأمها ، وذلك حتى تقلل حدة غضبها حينما تنتبه لغيابها ، فإنها تثور ما إن تجدها غادرت البيت دون إذنها، مضت علياء قدما ولم تنظر للوراء مرة واحدة، تحمل حقيبتها بيدها اليمنى، وتضع محفظتها على كتفيها، بينما تمسك بقصاصة صغيرة بيدها اليسرى دونت عليها عنوان والدها الجديد، إنها تشعر بالتوتر حيال الأمر لأنها لم تتصل بوالدها منذ فترة طويلة ، بعد السير المضني لساعات، وشقها سكون الليل وظلامه ها هي تجد سيارة أجرة تقول للسائق: السلام عليكم عمي هل تعرف هذا العنوان؟

يجيبها السائق: ما الذي جعلك تخرجين بساعة متأخرة من الليل و بمفرك؟ لكن لا يهم اركبي أنا أعرف العنوان جيدا.

ركبت علياء السيارة وما هي إلى فترة قصيرة من الزمن حتى يقول السائق: ها قد وصلنا إلى وجهتك يا ابنتي، تفضلي بالنزول.

علياء: شكرا عمي ، تفضل أجرتك.

يغادر سائق السيارة ويترك علياء أمام باب المنزل تتأمل طويلا، ثم تخطو خطواتها الأولى نحو الباب، إنها ترى الإنارة داخل البيت، هذا يعني أني أبي مستيقظ.

تدق علياء الباب ويفتح شاب عليها ،ويقول: نعم بم أساعدك؟

قالت علياء: هل أبي بالمنزل؟

قال الشاب: والدك؟ لم أفهم ؟

لم تقابل علياء والدها بعد وصولها مباشرة، بل أنها تعرفت إلى ابن زوجته، يا إلهي ...إنها تجد نفسها في دوامة أكبر من الأولى بكثير، ثم تقول لا بأس علي تحمل ذلك لأن أبي أحن بكثير من أمي وسيتفهم مشاعري ويساعدني على بلوغ النجاح.

علياء بعد تخمين طويل تقول: أيها الشاب أبي يكون زوج أمك.

الشاب: إذن أنت ابنته الوحيدة علياء؟

علياء: تبتسم وتفرح لأن والدها يتكلم عنها مع الآخرين وتقول: نعم أنا علياء طفلة أبي.

الشاب : إذن تفضلي بالدخول أختي، {يصمت هنيهة ثم يقول} هل لي أن أناديك أختي ؟ لأنه طالما ما أردت أن تكون لي أختا تشاركني أفراحي وأحزاني.

علياء تتنهد بصعوبة وتقول: بالطبع تستطيع ذلك.

حمدا لله تمكنت علياء من السيطرة على الوضع ،إنها تشعر براحة مؤقتة، وتسأل أين أبي؟

الشاب: سأناديه في الحال.

خطوات متثاقلة على السلالم، توحي أن صاحبها شديد التعب أو المرض، ها هو والد علياء يلتقي بها منذ فترة طويلة، ينهمر الدمع مع عيون علياء لأنها رأت والدها النشيط الأنيق اليوم يتكأ على عصا خشبية لتساعده في ضبط خطواته، لم تتوقع أن تجد والدها بهذه الحالة، وهذا جعلها تشعر بتأنيب الضمير لأنها لم تفكر مسبقا في زيارته.

يعانق الأب علياء ويقول: ابنتي علياء، اشتقت لك كثيرا كيف حالك؟

علياء تعانقه بشدة وتقول: بخير يا أبي، وأخيرا تمكنت من الوصول إليك.

والد علياء كان يسكن بمكان بعيد جدا ، لكن في الفترة الأخيرة فكر في شراء منزل قرب منزل زوجته الأولى ليراقب علياء كل صباح وهي تغادر للمدرسة، وعلياء لم تكن تعلم بشأن هذا أبدا لأن أمها ما كانت لتسمح لهما باللقاء أبدا.

أول ليلة تقضيها علياء بمنزل والدها، آه قد نسيت ....تعرفت أيضا إلى زوجة والدها اللطيفة التي ضمتها بين ذراعيها

واعترفت أنها قد أحبتها من خلال حكايات والدها عنها، فكان كلما اشتاق لها يقلب صفحات الألبوم ويسرح بتلك الصور التي كانت تجعله ينعم بالقليل من السكينة.

ذهبت علياء إلى الغرفة التي أشار إليها والدها برأسه، إذ أنها تجد غرفة باللون الوردي الذي طالما أحبته وقد وضع بالغرفة كل ما يتعلق بها، فوجدت صورا لها مع والدها، وبعض الرسومات التي كانت ترسمها بالمدرسة...وغير ذلك ، كل هذا لم يغير الحالة التي عاشتها علياء، بل أنها كانت توجه تركيزها الكلي إلى دراستها وفقط، لا تريد أن تعيش فوضى المشاعر والأحاسيس من جديد، بل إنها تحاول أن تشاهد بصمت وتواصل طريقها نحو النجاح ،هذا ما كان سيخفف القليل من آلامها.

ربُما تتساءل الآن عن ردة فعل والدة علياء من تصرف ابنتها، سأوضح لك الأمر، بعدما عادت الأم مرهقة من حفلتها الصاخبة أرادت أن تتفقد ابنتها، إذ بها تجد غرفتها فارغة وتركت لها قرب السرير رسالة ، فتحتها الأم لتقرأ ما كتبت علياء.

كانت علياء تقول برسالتها: {أمي أعتذر عن تصرفي هذا ، لكن أنت تعلمين أنه لدي طموح كبير، أطمح إلى الوصول إليه، وها أنا أرنو إليه بأولى خطواتي اليوم التي كان ثمنها ابتعادي عنك، أعلم أنك قاسية معي أحيانا لكن هذا لا يغطي حنانك أبدا

الذي كنت ألمحه لحظة تدفعين زوجك عني حتى لا يضربني ،حينما كنت تصرخين بوجهي حتى تحافظي على نفسيتي ولا أتعرض لموقف محرج مع زوجك، وغيرها من المواقف أمي جعلتني أشعر أنني حمل ثقيل على كتفين ، يعيق حياتك الجديدة، كنت ألاحظ أمي عذابك الذي طالما حاولت إخفاءه عني، قد أكون اليوم سببت لك جرحا كبيرا لكن أنا متأكدة أنك ستتجاوزين ذلك حينما أتمكن من الوصول إلى هدفي.......أعتذر أما فلم أجد حروفا تعبر عما يختلج صدري خاصة حينما فكرت ترك المنزل، لا تقلقي سأقصد مكانا آمنا وسأحرص على تبليغك أخباري خطوة بخطوة، والآن أمي امسحي دموعك واخلدي للنوم وإن تذكرتني يوما فاذكريني بصالح الدعاء، أحبك أمي ، دمت في رعاية الله وحفظه......ابنتك العزيزة علياء}

فعلا علياء كانت ذكية جدا تمكنت من إيقاظ عاطفة الأم وحنانها اتجاهها لأول مرة بعد طلاقها من والدها، ها هي الأم بعد قراءتها لتلك الأسطر التي خنقت قلبها، وحبست أنفاسها ، تغرق ببحر الدموع لم أكن إن كانت دموع الذنب، أم هي دموع الأسف على فراق ابنتها، لكن في كلتا الحالتين لم تفكر الأم في محاولة لإعادة ابنتها لأنها أول مرة تشعر أن تلك الطفلة الصغيرة

قد أصبحت فتاة ناضجة تفكر بالمستقبل بوعي تام، قالت الأم : اليوم لن أتدخل بقراراتها سأتركها تفعل ما تشاء ربما تحقق ما لم أستطع أن أحققه لها ، تقبل الأم تلك الرسالة وتقول موفقة بنيتي رعاك الله أينما كنت.

كنا نظن أن أم علياء هي أم سيئة وحادة الطباع ومتسلطة لا تطاق وكانت تمارس سلطتها على ابنتها ، لكن هذا الموقف أظهر لنا العكس ليوقظ الحيرة فينا من جديد، يا ترى ما هي الأسباب التي جعلت علياء تنشأ هكذا، وتفكر في سرقة أحلام الآخرين؟ الجواب يكمن هنا يا بني ، حينما ينشأ الطفل خاصة الفتاة وسط جو عائلي مهدد بالعواصف والانهيار قد يؤدي إلى التفكك الأسري ، نعم إنه التفكك الأسري أو ما نعرفه نحو بالطلاق هذا الأخير الذي يجعل أفكار الطفل تتشتت ولا يقوى على التركيز ولا يميز بين الصواب والخطأ، إنها اختيارات البالغين يروح ضحيتها طفل بريء لا يفقه من دروس الحياة شيئا، وهذا تماما ما حدث مع علياء ، التي كانت تخفي آلامها وحقدها لوالدتها وزوجها وراء حجاب رفيع لتحافظ على القليل ما بقي من احترام لأمها، تلك الرسالة لم تكن سوى وسيلة استعملتها علياء لتذليل والدتها وإزاحتها عن طريقها.

بعد مرور ثلاثة أشهر من من المواظبة والجد الذي أظهرته علياء اتجاه دروسها، ها هي تتمكن من اجتياز امتحانها النهائي ، وكانت نتائجها جيدة حقا، هذا النجاح زاد من حماس علياء أكثر وأكثر مما جعلها تمضي عطلتها وهي تنتقل وتجول بين كتبها ، حتى تتمكن من تغذية عقلها وتنمية أفكارها.

ولعلنا ذكرنا سابقا أن علياء فتاة حضرية تعشق الموضة، فعلا وقد ظهر ذلك من خلال متابعتها للصحف والمجلات للتعرف على آخر الأزياء والمصممين، كما أنها كانت تشاهد عروض الأزياء وقت فراغها، وهذا كان نتيجة مصادقتها زوج أبيها التي كانت تتميز بعاطفة حنونة معطاءة ، وكانت لا تميز بين علياء وابنها، زوج أبيها التي كانت تعمل بأكبر المحلات التجارية ، تفردت هذه الأخيرة بروعة التصاميم التي كانت تبيعها، فكانت تتردد علياء مع زوج أبيها للمحل وتعرفت على أنواع القماش وغير ذلك، وتمكنت من تعلم العمل على آلة الخياطة ثم بعد ذلك نمت حبها للموضة والخياطة بمحل والد زينب ، إذن امرأة غريبة استطاعت أن تستوطن قلب علياء ، وتهتم بتطلعاتها وأحلامها، وقد وعدتها أنها بعد نيلها شهادة البكالوريا سترسلها للدراسة خارج الوطن وتتعرف أيضا على عادات وتقاليد

جديدة لتنمي أفكارها الحضارية أكثر ومن هنا تنتج لنا علياء التي نعرفها اليوم.

والآن أظن أن العشاء الرومنسي على مشارف الانتهاء، دعنا نتفقد الأمر.

نعم أيها لنعد إلى علياء وعمر .

الجد: بعد ليلة خيالية لا تنسى تمكنت علياء من إلقاء تعويذتها الأخيرة فتسأل عمر : هل أعجبك العشاء عزيزي؟

يجيب عمر بلهفة وسعادة كبيرة: بالطبع عزيزي لقد أخذت قسطا مضاعفا من الراحة اليوم، وقد تناولت جرعة زائدة من السعادة والفرح ، تدفعني في الرغبة للطيران عاليا، اليوم تستحقين هدية فاطلبي ما شئت ثم يقوم فجأة ويركع على قدميه ويقول: عزيزتي شبيك لبيك....عمر بين يديك.

تضحك علياء من الموقف والكل حولهم مستغرب للأمر ، كأنهم يشاهدون فيلما رومنسيا باهرا، علياء ترفع رأسها عاليا وتقول: أريد هدية لا تضمحل ولا تنتهي، هدية تتضاعف مع الأيام، هدية تكبر أمام عيني كما يكبر حبي لك بقلبي.

عادت علياء لتستعمل ألغازها وها هي تدس سمها بين الحروف ليرتشفه عمر بغباء كبير، عمر وما تكون هذه الهدية؟ أعدك أن أنفذها قبل أن أعرف ما تكون.

علياء: أريد أن تحول المحل التجاري بالمدينة باسمي.

عمر : أهذا كل ما في الأمر؟ خلته أمرا يستحيل تحقيقه، لكني وجدته بسيطا جدا، غدا بإذن الله بعد الغذاء تعالي للمحل لنذهب معا للموثق الإداري.

علياء: فعلا عزيزي أنت موافق. يا الله أنت أجمل صدفة حدثت بحياتي.

أيتها الماكرة كيف تقولين أنه صدفة، إن كنت قد وضعت خططا كثيرة لاستعمار دولته العريقة التي قد سلمك مفاتيحها دون مقاومة رغم أنه كان يملك جيشا لا يستهان به، لكنه تخلى عن جيشه طلبا لجمالك .

بعد هذا عاد عمر وعلياء إلى البيت ويبدو عليهما الإنهاك الشديد، كأنهما قد وصلا من سفر طويل هذه الليلة ليست كغيرها بالنسبة لعلياء، لأن هذه الليلة تفصلها عن مسك ميراث عمر إنها تريد السلطة والحب هنا فقط فهمت ، لم قالت أنها تريد المملكة ومن فيها؟

إذن المستوطنة التي توشك الاستيلاء عليها الآن هي أموال عمر، {يتنهد الجد طويلا ثم يضحك }: موقف علياء هذا يذكرني بقول زوجتي رحمها الله: {إذا أرادت المرأة أن تسيطر على الرجل عليها محاصرة الطرق الثلاث التي تسعد قلبه.

وما كانت هذه الطرق يا جدي؟

الجد: الطريق الأول يا بني هو البطن ، لأن الرجل كلما تلذذ الطعام كلما لان عقله، والطريق الثاني هو قلبه تغزوه المرأة بحنانها وعطفها، والطريق الثالث والأهم وهو نقطة فشل أغلب النساء يتمثل في ماله، إذا سيطرت المرأة على الأبواب الثلاثة هذه فإن زوجها لن ينزلق من حياتها أبدا ، حتى أنه لن يفكر بذلك.

إذن يا جدي زينب كانت قد أخفقت في فتح الباب الثالث والسيطرة عليه.

الجد: زينب لم تفشل في ذلك، وإنما هي لم تفكر بالأمر لأنها كانت تجد أن مهنتها هي باب رزق زوجها ،لم تكن تتوقع أن تًشن عليها حرب تهاجم فيها بسلاحها نفسه.

فعلا صدقت يا جدي علياء استعملت سلاح زينب للقضاء عليها، لكنها استعملته بحنكة وذكاء .

الجد: هذا ليس ذكاء بل مكر وخديعة، أظن أن الذئب أخذ دروسه الأولى بمدرسة علياء، الجد كان يبدد قسوة القصة بقليل من الفكاهة ليتمكن من السيطرة على طوفان مشاعره، لكنه لم ينتبه أنه قد تمكن من إيقاظ شبح الحزن داخلي، فإني أشعر أنني قد فقدت الرغبة بالحياة ، إنه أمر سيء حينما تسمع مأساة كهذه وتقف كشاهد عيان لكن للأسف أبكم أصم لا تستطيع التغيير،

أو أنك مجنون لا يعي ضخامة الوضع حوله ، يبكي لبكاء الآخرين دون أن يعرف إن كانت دموع الفرح، أم دموع الحزن؟

بعد هذا يعود الجد لأهم جزء بروايته إلى منى الصغيرة ، التي كانت تكبر أمام امرأة تطمح بآمال كثيرة تريد أن تحققها معها، لكن لم نكن أن هذه الأحلام كانت أنانية وأنها ستقضي على منى تماما، بعد أن استولت علياء على المحل تمكنت تدريجيا من تربع عرش الإدارة وأصبحت صاحبة الأوامر والنواهي فيه، ثم بعد مرور ثلاث سنوات تمكنت علياء من إنشاء فرع آخر للمحل وهذه المرة أكبر من الأول كل هذا كان يشعر عمر بالسعادة والفرح، رزقه ينمو أكثر وأكثر ولا يرى ضررا في ذلك ، لكن لم يكن يعلم النوايا الحقيقة لعلياء ، التي كانت تستشير شيطانها في تدبير أسوء الأمور دائما، الآن هي تحتاج فكرة جديدة ومختلفة لتستولي على الفرع الثاني للمحل ، لكن يا ترى ماذا ستفعل هذه المرة؟

تفكر علياء طويلا كيف تفتح موضوع المحل مع عمر، إنها تشعر بالخوف ، ربُما يفكر عمر أن تطمع للاستيلاء على أمواله وتهجره بعدها؟ يا إلهي إنها تشعر بقصور فكرها هذه المرة، لعل وقود عقلها نفذت أو أن شيطانها تأخر بإجازته هذه المرة، لكن إنها لا

تعرف الاستسلام فها هي ترتشف قهوتها الحارة بغرفه نومها، هكذا كانت تفعل لترسم خططها.

فجأة تشعر علياء بالفرح وتصيح وجدتها...وجدتها....

يقتلني الفضول لأعرف ما الأمر الذي وجدته يا ترى؟ سأنتظر لحين عودة عمر وأسمع حديثها ربما أستطيع الكشف عن السر.

في المساء عاد عمر كعادته من عمله المنهك ، فيجد عشاء راقيا ينتظره ، لكن هذه المرة كان العشاء ببهو البيت كما كان يريده دائما لأن عمر ولد من رحم البساطة ولا يسعه أن يرضع من الحضارة التي ولدت منها علياء، إنهما يختلفان تماما ، لكن هذا الاختلاف كانت تجده علياء سلاحا ضد عمر.

تفاجأ عمر بالأمر لكنه كان يشعر بالسعادة، سأل علياء: ما بالك اليوم ؟ أغيرت تفكيرك؟ أم أنك أنت من تغير؟

تجيب علياء: لم يتغير أحد منا، فقط أردت كسر الروتين، كما أنني أريح إراحة بطني من أكل المطاعم وأريد أن يكون لنا القليل من الخصوصية، أليس لي حق بذلك؟

عمر: بلى، ولك كل الحق ، سأستحم ثم آتي إليك.

بعد أن أنهى عمر استحمامه وجد علياء تجلس رفقة منى على الطاولة ، يخاطب منى: تعالي إلي يا دنيتي اشتقت لك كثيرا.

يداعب عمر ابنته منى وشرارة الغيرة تتطاير من عيون علياء وهي تراقب سعادتهما، إنه لا تريد شريكا بعمر حتى لو كان هذا الشريك ابنته البريئة ، أنهت العائلة العشاء قامت علياء لتنظيف الطاولة وانصرف عمر إلى غرفة منى ليقص لها قصة قبل النوم كعادته، حينما كبرت منى كبر حقد وكره علياء لها والآن ترى أنها عدو عليها سحقه في أقرب الآجال، وهذا لم يكن بالصعب على علياء لأنها قد تمكنت من سحق نسر قوي كيف لا تتمكن من سحق عصفور صغير جريح لا يتحرك دون أن يتكأ على كتف عمر، إنها تخطط بهدوء تام ، وتتصرف بروية تجعلها أكثر تركيزا على الهدف ها هي بالمطبخ تقول: منى..منى صغيرة جدا أمرها بسيط..لكن أولا عليك إصابة قلب عمر وتحطيمه حتى لا يتمكن من مساعدة منى، لكن كيف سيكون ذلك؟

بينما كانت تفكر يكلمها أخوها على الهاتف: فتجيب: ألو أهلا يا صغيري كيف حالك؟

يجيبها: لم أعد صغيرا يا علياء ، الآن أنا رجل احترمي ذلك.

تعلي علياء ضحكاتها وتقول: لعله أجمل أمر قامت به والدتي بحياتها هو إنجابك ، فالآن يا أخي لا سند لي غيرك، فإنك حياتي كلها....تواصل علياء الحديث مع الصغير وقتا طويلا على الهاتف ثم فجأة تهب ريح قوية بعقلها لتهديها فكرة جديدة

فريدة من نوعها، رغم أنها كانت سيئة بالنسبة لها لكنها هي الحل الوحيد لتنفيذ الخطة، تقول علياء: حسنا...حسنا يا صغيري أنا مشغولة الآن سأتصل بك لاحقا.

الصغير: حسنا أختي اعتني بنفسك.

تقفل علياء الخط وتفكر الآن الخطة جاهزة والوسيلة موجودة، لكن يا ترى هل سيقبل عمر بهذه الفكرة؟

تقرر علياء أن تقتحم اللعبة وهذه المرة ستستعمل بطاقات ربُما تجعلها تخسر الجولة، لكن الأمر لا يهمها فإنها قد قطعت شوطا كبيرا بمعركتها خاصة في السنة الأخيرة، إذن تدخل علياء غرفة نومها وتجد عمر منشغلا بدفاتر الحسابات والضرائب للمحلات، تقول: هل تريد شيئا يا عمر؟

عمر: لا يا عزيزتي لا أريد شيئا، فقط اخلدي للنوم سأتأخر قليلا بالنوم، لأنه أمامي عمل كثير ولا مزيد لي من الوقت ، علي أنهي العمل سريعا.

علياء: حسنا سأنتظرك، لأنني أريك رأيك بموضوع مهم.

عمر: ما الأمر المهم يا علياء الذي لا ينتظر بزوغ الصباح؟

علياء: إنه أمر يخص منى يا عمر.

ها هي علياء تستعمل الورقة الأولى من أوراقها، وهي تعلم علم اليقين أنه لا أمر يشتت انتباه عمر ويشغلك عن عمله سوى أمور منى.

عمر: منى؟ ما بها منى؟

علياء: أنت تعلم أن منى توشك أن تبلغ ستة سنوات من عمرها، وسيتعين عليها إرسالها إلى المدرسة.

عمر: آه....فعلا كبرت منى وقريبا ستذهب إلى المدرسة، لكن ما المخيف في الأمر؟

علياء: أنت تعلم أنه لا يزورني أحد من القرية ويمر يومي مع منى وأعمال البيت ورعي القطيع وفقط، ومنى تجعلني أتخلص من الوحدة، إذن تخيل شعوري بعد ابتعادها عني وقضاءها يوما كاملا بدوني؟

عمر: فهمت الآن ، ستشعرين بالوحدة أثناء غياب منى، لكن هناك حل.

علياء: ما هذا الحل يا عمر؟

عمر: سأبحث عن راع للقطيع وأنت تذهبين معي للمحل، وهكذا تتمكنين من كسر الوحدة من جهة، ومساعدتي من جهة أخرى.

تثور علياء غضبا وتقول: لا أريد حلا متعبا بل حلا يجعلني أبقى ملكة ببيتي ، لا أتردد إلى المحلات وأقابل زبائن أغبياء، وأتعامل مع عمال الضرائب الذين لا يعرفون معنى الإنسانية.

عمر: احترت لأمرك، إن كان هناك ببالك شاركيني إياه.

علياء : باختصار أريد أن أنجب أخا لمنى.

كان قلب علياء ينبض بسرعة وهي تتلفظ هذه الحروف ، التي كانت تشعر أنها قد خرجت وفق طعنات متكررة بقلبها، وذلك لأنها كانت ترفض فكرة أن تصبح أما وقد رفضت ذلك مسبقا حينما فتح عمر الموضوع معها، لكن الأمر مختلف الآن إنها تغير بعض المبادئ بغية الوصول إلى الأهداف الأنانية، الآن تنتظر رد عمر عليها الذي أصيب بصاعقة بعقلك لا يدري ما بال علياء؟ لكن لطالما كان يرغب في إنجاب طفل منها وهذا ما جعله يوافق على طلبها، ويقول: أنا موافق علياء بأن يكون هناك أخ لمنى.

علياء لم تخطأ حينما استعملت اسم منى بحديثها ، فهي تعلم أن عقل عمر يغيب تماما ما إن يتعلق الأمر بابنته، في هذه اللحظة تراجعت علياء عن اعتبارها منى عدوا لها فقالت بصوت خافت: لن أتخلص منك الآن لأنني أشعر أن ورقك الرابحة، التي يسهل علي عليها استعمالها في أية لحظة شئت.

من هذا اليوم بدأت علياء تفكر في طريقة لتتقرب من منى أكثر، لأن علاقتهما كانت سيئة قليلا ، وذلك بسبب النفور الذي كان بينهما ، لا تعلم لحد اليوم منى أن علياء لا تكون والدتها الأصلية، لكنها بالوقت نفسه لازالت طفلة صغيرة لم ينضج عقلها ليفك شفرة هذه الأسرار.

بعد مرور مدة من الوقت كالمعتاد، تنتظر علياء إن تبدو عليها علامات الحمل، تتساءل لماذا تأخر الأمر؟ وهل هذا يشكل خطرا عليها أم لا؟ تساؤلات كثيرة كانت تحيط بعلياء هذه الفترة إنها تشعر بالتوتر ليس لأنه تأخر حملها وإنما خوفا من فساد خطتها.

بعد مرور شهرين من هذا اليوم ، ها هي علياء تشعر بتوعك كبير وغثيان شديد، كما أنها لم تستطع أن تدخل المطبخ، لم تكن علياء تعلم أن ما يحدث معها هو علامات الوحم، تتصل علياء بعمر وتطلب منه أن يأت فورا ويأخذها إلى الطبيب، يسألها عمر عما تشعر به، فتشرح له حالتها بالتفصيل، يضحك عمر حينها ويقول لها: أيتها البلهاء إنها علامات الحمل.

تجيب علياء: لست أهلا بمزاحك الآن ،فإني أتكلم بجدية.

يؤكد لها عمر: والله يا عزيزتي إنها علامات الحمل، وهذا ما يحدث في الفترة الأولى منه.

فرحت علياء وأقفلت الخط وها هي الآن تتراقص على أنغام أنانيتها وتقول : أخيرا ..أخيرا سيتحقق حلمي قريبا ستكون مملكتي بين يدي.

لم يكن يعلم عمر أن المولود الجديد سيسرقه من منى ويشغله تماما عنها، لأنه كان يظن أن منى هي فرحته وحياته لكن هذا لأنه لم يكن له ولدا غيرها.

يعود عمر إلى البيت وهو محمل بالهدايا التي ابتاعها لعلياء ليهديها إياها ، تقبل عليه علياء تهلل من شدة فرحها وتعانقه بشكل غير معتاد، إنها تشعر أنها مسكت النجوم بيديها ، لحد اليوم كان مخطط علياء يسري كما خططت له بالضبط فلم يكن هناك تغيير بالأحداث أبدا، كأنها كانت تدبر للأمر منذ فترة طويلة.

أحيانا حينما أنظر لعلياء أشعر بالشفقة عليها ، وأحيانا أخرى أشعر بالنفور منها، لأنني كنت أظن أنها تلتحف بعباءتين مختلفتين تماما، فتارة أجدها لينة لطيفة، وتارة أجدها ساحرة ماكرة، لا تهتم إلا لرغباتها وطموحها، وأراها أنانية جدا لأنها لا تهتم للأشخاص حولها وإنما همها الوحيد النجاح.

هنا تأخذ قصتنا منعرجا آخر لأن علياء ستعمل على إبعاد منى حتى يتسنى لها التربع على عرش عمر تريد أن تكون الملكة ولا

وجود لغيرها بقلب عمر ، إذن بعد مرور ستة أشهر من حمل علياء يقترب الموسم الدراسي إنها تخطط لتسجيل منى بمدرسة داخلية ، تريد إبعادها أطول مدة ممكنة، واليوم بعد أن سجلت منى بالمدرسة تقرر أن تفتح الموضوع مع عمر راغبة في اقتناء بعض الضروريات لمنى.

علياء: أقبل الموسم الدراسي ، وحان تسجيل منى.

عمر : حسنا بالغد سأذهب للبلدية وأحضر الوثائق اللازمة.

علياء: لا عليك عزيزي أعلم أنك منشغل جدا، لقد أحضرت الوثائق اليوم ومررت بطريقي على مدرسة داخلية جميلة، قابلت مديرتها وبعضا من معلميها، فاقتنعت أنها ملائمة تماما لمنى ، وقمت بتسجيلها.

عمر يقطب حاجبيه ويقول: علياء منى صغيرة جدا على الالتحاق بمدرسة داخلية، إنها تحتاج للرعاية أكثر والمراقبة الدائمة، وأنت تعلمين أنها لا تختلط بالغير ولا تكون صداقات إذن كيف ستتأقلم مع الوضع وحدها هناك؟ إنها ستشعر بالغربة والوحدة، لا لا أستطيع أن أوافقك على هذا.

علياء: لقد باستشارة طبيب نفساني بهذه المدرسة نصحني بتسجيل منى حتى تتخلص من عزلتها ووحدتها هذه وتتمكن من خلق علاقات جديدة خارج وسطها العائلي، صدقني الأمر

بصالح منى لا تعارض على ذلك أرجوك، أريد أن أرى منى ناجحة وسعيدة ، وهذه خطوة ضرورية لحياتها عزيزي.

حينما يلاحظ عمر إصرار علياء على مصالح منى يفهم حب علياء الزائف الذي تكنه لها ، فإنه يراها أما متفهمة جدا وتسعى لمصلحة ابنة ليست ابنتها، هذا ما كان يجعل عمر يطمئن على منى ومستقبلها مع علياء، لا يشط أبدا في طهر وصفاء نية علياء.

يرد عمر بعد تفكير طويل: حسنا أوافقك على ذلك ، لكن لي شرط واحد.

علياء: تفضل به.

عمر: سأزور منى دائما إن وجدتها غير سعيدة بالوضع هناك أعيدها للبيت.

علياء: طبعا عزيزي سنخوض هذه التجربة لأجل منى وإن لم يناسبها الأمر نحولها إلى مدرسة عادية.

إذن بعد مناقشة أمور منى وموافقة عمر ، تفكر علياء في النزول للسوق الأسبوعي الذي كان يقام عادة بشكل مستمر ومنتظم يوم الأحد، لتشتري لوازم المدرسة لمنى.

إنه الأحد تنهض علياء باكرا تحضر الحمام وفطور الصباح لعمرو ثم تتفقد منى وتوقظها لاصطحابها معها للسوق، إنها تريد منها اختيار لوازمها ، وأخيرا قد تركت علياء مجالا لمنى لأن تقرر ما

تريد ، يستيقظ عمر يستحم ثم يتناول فطوره ، يسأل علياء: أين تنوين الذهاب هذا الصباح؟

علياء: إنني أنوي للذهاب إلى السوق الأسبوعي رفقة منى وأشتري لها اللوازم المدرسية.

عمر: آه..أعتذر نسيت اليوم الأحد.

علياء: نعم إنه الأحد بقي أسبوع واحد للدخول المدرسي ، وأنا متأكدة أنه هناك أدوات رائعة بهذا السوق ستناسب منى .

عمر: حسنا افعلي ما ترينه مناسبا ، اليوم علي أن أزور مصلحة الضرائب لأدفع ضرائب المحلات ، سأغادر الآن أراكما في المساء وإن احتجت شيئا اتصلي بي.

علياء: حسنا موفق عزيزي.

بعد خروج عمر تذهب علياء لغرفة منى وتختار لها أجمل الملابس ، تسرح لها شعرها الذهبي الطويل الذي كان نسخة عن شعر والدتها، يا الله إنها بدر اليوم ، مسكينة منى سعيدة بهذه اللحظات لطالما كانت تحلم بالذهاب إلى المدرسة لكن لم تكن تعلم ما هي العواقب التي ستعيق طريقها، دروب محفوفة بأشواك قاسية تنتظر أقدام تلك الصغيرة لتغزها وتلدغها لدغات لا تشفى بمرور الأيام والسنين، أحلام منى كانت صغيرة تناسب عمرها لكنها كانت تكبر معها يوما بعد يوم،

للأسف لم يكتب لها العيش ستموت هذه الأحلام في عمر الزهور، تدفنها منى بمقبرتها المنسية ولن تستطيع البكاء عليها حتى، واقع مر ينتظر منى ، التي كانت تتمسك بيد علياء وهي ذاهبة للسوق تقول منى: ماذا سنشتري يا أمي؟

تجيب علياء بانزعاج إنها لا تحب أن تناديها منى بأمي : سنشتري محفظة ومئزرا استعدادا للدخول المدرسي.

منى: حسنا أمي أتلهف شوقا لأبدأ دوامي بالمدرسة.

وصلت عليت ومنى إلى السوق ها هي تختار ما يعجبها من الأدوات وغير ذلك، اختارت منى أن تكون أدواتها باللون الوردي تماما كما أرادت والدتها زينب، لم تمانع علياء عل اختيارات منى لأنها أرادت أن تشعرها بقليل من الحرية ، لا يهم إنه اليوم الأخير لها بالبيت ، تنتهي منى من أدواتها يغادران السوق عودة للقرية إذ بها تمر على محل المثلجات تصر على علياء للدخول، تدخل علياء تطلب علياء مثلجات بنكهة الشوكولا بينما علياء تطلبها بنكهة الفراولة، تشعر علياء أن منى نسخة طبق الأصل عن زينب بالرغم من أنها لم تعش معها طويلا، لكنها تهوى ما تهواه وتكره ما تكره يا إلهي ..تشعر علياء للحظة أن طيف زينب يحوم حولها، امتلأت عيناها بالدمع ...لا أعلم إن كان خوفا أم ندما.

بعد الانتهاء من الأكل تغادر علياء ومنى المحل للقرية مباشرة ، ما إن وصلا المنزل أسرعت منى لغرفتها لتجمع أدواتها وتتفقدها جيدا ، تفتح منى صندوقا صغيرا كانت تخفيه بين ألعابها ، يا ترى ما الذي تخفيه بهذا الشكل السري؟

تتناول دفترا من هذا الصندوق...لا لم يكن دفترا عاديا بل كان مذكرات ، لكن منى لا تعرف الكتابة كيف لها أن تكتب مذكراتها؟ يا إلهي...إنها مذكرات والدتها زينب، لحسن الحظ لحد اليوم منى لا تقرأ ولا تكتب لأنها صغيرة ولم تتعلم ذلك بعد ، لكن كانت تنوي على قراءة هذه المذكرات حينما تتعلم القراءة والكتابة، وماذا بالصندوق أيضا يا ترى؟

هناك القرطين الجميلين تركتها زينب لمنى ، وأيضا أساور ملونة وجميلة، مهلا ...مهلا هناك شيء آخر يا إلهي إنها صورة لزينب، وأخرى صورة زواجها من عمر، وأخرى صورة لمنى وهي بحضن زينب أتذكر حفل الاستقبال ذاك ؟

نعم جدي الحفل الذي أقيم استقبالا لمنى.

نعم إنه هو حينما كانت منى تبكي كثيرا فجملتها زينب بين ذراعيها لتهدأ من روعها، في تلك اللحظة التقط عمر صورة لهما ، هي التي احتفظت بها منى داخل هذا الصندوق الصغير .

لكن يا جدي أيمكن أن تكون منى على علم بحقيقة علياء؟ وهي تخفي الأمر.

لا لا يا بني منى أصغر من ذلك بكثير، ألم أقل لك أنها عاجزة عن فك شفرة الأحداث.

لكن يا جدي لماذا لم تسأل عمر أو علياء عن هذه الصور؟

أمر محير فعلا يا بني أظن أن منى الصغيرة تتمتع بالذكاء الذي جعلها تتريث لكشف الحقيقة ،أو ربما كانت تنتظر لحين قراءتها المذكرات وتتضح لها الصورة جليا دون مناقشات ومقدمات.

فعلا جدي أظنها كانت تفكر بهذا الشكل.

انتهت منى من تحضير لوازمها وأدواتها ، والآن تنتظر على أحر من الجمر يوم الدخول المدرسي، أظنه ما كان يزيد من حماسها هو فضولها لقراءة لتلك المذكرات ، أتمنى أن لا ترث منى أية صفة من صفات علياء مستقبلا، لا أريدها أ تحيي حياة قاسية بهذا الشكل.

علياء منشغلة بتحضير العشاء والصغيرة تساعدها في وضع الأكل على الطاولة، إنها كانت تقوم بالأعمال المنزلية بشكل رائع ومتقن رغم سن سنها، هذا ما يجعل علياء تتذكر بابا من أبواب طفولتها المرة التي طالما تجنبت الحديث عنها.

إنها الساعة العاشرة مساء موعد عودة عمر ككل يوم، ها هو عمر يدق الباب كعادته بنغمته المعتادة تفتح علياء يلقي التحية ويعانق منى ويقبلها على جبينها تخاطبه منى: أبي قريبا أذهب إلى المدرسة.

عمر يبتسم فرحا ويسألها: وهل أنت سعيدة بهذا؟

منى : طبعا أبي أريد أن أتعلم لأساعدك بعملك عندما تشيخ.

ضحك عمر من كلمات لسان البراءة الساذجة ويقول: أنت العصا التي سأتكئ عليها مستقبلا ، لكن لا أعلم إن كان هذا الجسم النحيف يقوى على حمل فيل ثقيل مثالي.

تضحك منى من مزاح والدها وتقول: لا عليم أبي سآكل كثيرا لأكبر سريعا.

فعلا عمر كان يتأمل أن تكون منى سندا له وهذا ما سيتحقق بالأخير لأنه لن يجد أحدا بجانه غيرها.

مر الأسبوع بطرفة عين وها قد أقبل صباح الأحد هذا الأحد ليس كغيره إنه بداية أسبوع جديدة وحياة جديدة لمنى، التي استيقظت باكرا أو ربما لم تنم ، إنها تشعر بالحماس، تستحم منى سريعا وتذهب للمطبخ تفتح الثلاجة تأخذ منها بعض الأشياء جلبها عمر لها الليلة الماضية، تضعها بقسم خاص من محفظتها،

ثم تقرع باب غرفة والدها وتنادي: أمي...أبي إنه موعد مدرستي.

يستيقظ عمر من نوما مفرغا ، يتناول ساعة يده فيجدها السادسة صباحا ، يضحك ويقول : منى لا زال أمامك ساعتين ابنتي رويدك لم العجلة؟

منى: لقد قلت لي أنك تكره التأخير و أنا لا أرد أن أتأخر عن مدرستي ، قم بسرعة أبي رجاء.

يستسلم عمر لإصرار منى وينهض متثاقل الخطى من فراشه، يوقظ علياء ، لتنهض وتسرح شرع منى وتغير ملابسها وغير ذلك،يستحم عمر ثم يخرج من غرفته فيجد منى الصغيرة تجلس بالصالون وهي تبدو مثل الأميرات كانت أنيقة المظهر، شفتاها متوردتان مبتسمتان ، ومحياها أنقى من نقاء القمر، ضفائرها الطويلة تغطي كتفيها وتفوح منها رائحة عطرة ، يتغلغل العطر لأنف عمر...يا إلهي إنه النوع الذي تحبه زينب، كيف علمت منى بهذا الأمر؟

الأسبوع الماضي حينها اشترت أدواتها، سمحت لها علياء بحرية التصرف، واختارت لها العطر ذاته الذي كانت تضعه والدتها ، لا أدري ما كان السبب؟ لكن المهم هو أن منى سعيدة بهذا.

يقبل عمر بسرعة لمنى ويأخذها بين ذراعيه يعانقها بشدة فتدمع عيناه، تقول منى مازحة لتخفف آلامه: أبي أنا ذاهبة للمدرسة وليس أوروبا.

يضربها عمر بكف خفيف على خدها ويقول: لقد كبرت يا منى وأصبحت شقية.

منى: نعم وأخذت القليل من شخصيتك أيها التاجر عمر.

تقطع علياء حديثهما وتقول: هيا منى عليك تناول الفطور قبل الذهاب.

منى: لا أمي لست بحاجة لذلك لقد تناولت القليل من الحليب مع البسكويت .

علياء : حسنا كما تشائين سأغير ملابسي لأوصلك إلى المدرسة.

عمر: لا داعي لذلك عزيزتي ، اليوم أنا أوصلها للمدرسة عودي للنوم إنك شاحبة اللون، ومتعبة جدا خذي قسطا من الراحة اليوم.

توافق علياء على كلام عمر تعود لغرفتها وترتاح قليلا ، هذه الفترة كانت صعبة جدا عليها لأنها بلغت الشهر السابع من حملها ، ويجب أن تهتم بصحتها أكثر ،حتى لا ينتهي بها الأمر إلى ولادة مبكرة أو قيصرية، كانت علياء تشعر بالفرع لمجرد التفكير بالأمر.

حملت منى حقيبتها وبدأت تسابق الخطى مع والدها لم تنظر وراءها أبدا ، إنها تتطلع للمستقبل المجهول الذي شقا طريقه اليوم ولا تريد أن تتراجع، يراقب عمر فرحة منى بعينين باكيتين إنه ينظر نظرة وداع كأنها النظرات الأخيرة قبل الوداع الأخير، فجأة يوقفها ويأخذها بين ذراعيه بقوة ، تقول منى: ما بالك أبي لا تقلق سأكون بخير هناك، بآخر المطاف أنا ابنة السيد عمر.

فعلا ورثت منى القليل من صفات عمر فإنها تريد أن تكون قوية مثله وناجحة أيضا ولا تدرك الصغيرة أنه لن يتسن لها ذلك، فإن ما نسج لها بغيابها أعظم بكثير.

ها هي منى عند عتبة الباب الرئيسي للمدرسة ، تتأمل طويلا وهي شامخة الهامة تبحر بنظراتها من قاعة إلى أخرى تمسك بيد والدها بقوة كأنها تتلفظ أنفاسها بصعوبة كبيرة، يقلق عمر لوضعها إنها تسمع ضجيجا هائلا نابع من ساحة المدرسة، أطفال يتسابقون هنا وهناك ، ومنى لا تكاد تصرف النظر على سطح المدرسة، يبدد عمر تركيزها هذا ويهزها بيده،

ما بالك صغيرتي ؟ إنهم أترابك يا بنيتي.

منى: أتقصد أنهم بعمري يا والدي؟

عمر: نعم يا صغيرتي، هلا دخلنا للمدرسة.

تتنهد منى طويلا وتومئ لوالدها بعلامة من رأسها توحي بموافقتها له.

يدخلان معا وها هما يتجهان إل القسم الإداري للمدرسة ليقابل المديرة ويدردش معها عن أساسيات المدرسة، ظنا منه أنه هذا سيخفف خوف منى ، يدخلان مكتب المديرة ترحب بهما أيما ترحيب وتقبل منى وتعانقها، نزلت كلمات المديرة بردا وسلاما على قلب عمر ومنى أيضا.

تمسك منى محفظتها بحرص شديد تنتبه المديرة لذلك يُخيل لها أنها تخاف ضياع حاجياتها ، فسألتها : لم تمسكين محفظتك هكذا صغيرتي؟

منى: إنها تحمل لوازمي الخاصة وأضع بها بعضا من الذكريات التي لا أهوى أن يتعرض لها أحد.

المديرة : اطمئني صغيرتي لم يتعرض لك أحد هنا ، كل الأطفال يتميزون بأخلاق وآداب عالية ، والآن قومي معي لأصطحبك إلى غرفتك بنزل الفتيات.

تقوم منى وعمر رفقة المديرة إلى غرفة منى، يدخلان إليها فيجدها عمر غرفة نظيفة دافئة توفر شروط الراحة لمنى ليطمئن قلبه أكثر، تتعرف منى على شريكتها بالغرفة التي كان اسمها عائشة إنها فتاة سمراء قصيرة القامة ، سوداء العينين والشعر ،

رقيقة العود ، إنها لا تختلف كثيرا عن منى، يظن عمر أنهما ستكونان صديقتان مقربتان جدا ، وذلك لتوافقهما في أمور كثيرة.

بعد أن اطمئن عمر على منى يهم بالرحيل ...توقفه المديرة لتسلمه جدول الزيارات ، لم يكن يتوقع عمر أن علاقته بابنته ستكون هكذا يوما مقيدة بقوانين متسلطة ، لكن لا يملك خيارا الآن سوى أن ينقاد لهذه الأوامر لأنه يرى أن منى ستجد ذاتها وتكون شخصيتها في هذه المدرسة، ولا يريد أن يكون عائقا بطريقها أبدا، أولا وأخيرا ستكبر وتبتعد عنه ' لما عليه أن يضمد جروحه بمرهم الذكريات التي حفظها في بعض من الصور له ولمنى.

كانت أيام الزيارة محددة كالآتي{ يوم الاثنين ويوم الخميس وذلك خلال الفترة الصباحية وتدوم الزيارة لساعتين فقط} يظن عمر أن هذا الوقت غير كاف لكنه لا يعلم أنه لن يجد حتى دقيقة من وقته لاحقا لزيارة منى.

إلى يومنا هذا كانت خطط علياء تتحقق بنجاح كبير،مرت ثلاثة أسابيع منذ التحاق منى بالمدرسة كان عمر يداوم على زيارتها في الموعد المحدد دائما بينما علياء كانت تزورها مرة واحدة في الأسبوع وذلك لأنها كانت قليلة الكلام معها، فإن منى لا تكاد

تنطق بكلمة واحدة في حضور علياء ، ربما كان ذلك خوفا أو ربما قسوة لياء هي السبب لنفور منى منها.

حياة عمر وعلياء تمشي علي وتيرة هادئة، وهما ينتظران المولود الجديد وبعد الفحوصات الطبية الأخيرة تبين أن علياء تحملا ولدا، خرجت علياء رفقة عمر لشراء ما تيسر لهما استقبالا لهذا المولود الجديد ، كانت علياء تختار الأشياء بعناية تامة فإنها تريد غرفة مثالية لطفلها وتنوي أن توفر بها كل شروط الراحة والسلام ، لكن أين يا ترى ستضع علياء غرفة ابنها؟

بيتهما كان به غرفتين وصالة ومطبخ أما الجزء العلوي فإنه لم يكتمل بعد، تفكر كثيرا ثم يقترح عليها عمر غرفة مشتركة بين منى والصغير، في بداية الأمر توافق على هذا الحل لحل مؤقت ريثما تفكر في حل مثالي يرضي غرورها.

انتهت فترة الحمل وها قد هل اليوم الموعود، اليوم الذي ستضع علياء ملاكها ببين يدي عمر ، يصطحبها عمر إلى أكبر مستشفى بالمدينة لأنها رفضت أن تلد ولادة بسيطة على يد قابلة قروية ، لا يهم ها هما بالمستشفى تنتظر علياء ولوج الطبيب إلي غرفتها، تعلوها صفرة شديدة ، ويداها ترتعشان تكاد لا تقوى قدماها على الصمود، إنها تشعر أنها لا تستطيع حمل ثقل جسمها، أكان هذا ألم المخاض؟ أم غير ذلك؟

لم يكن هذا إلا القليل من الخوف الذي تسلط علي قلب علياء لأنها كانت حساسة جدا وتخاف المستشفيات والدم وغير ذلك، باختصار كانت تعاني فوبيا شديدة من هذه الأماكن تجعلها لا تسيطر على نفسها.

يدخل الطبيب إلى غرفة علياء يهدأ من روعها ثم يأمر الممرضة بأخذها إلى غرفة التوليد، تذعر علياء وتسأل : أهي قيصرية يا دكتور؟

يجب الطبيب إننا لا أعلم ذلك، لكن لا داعي للقلق إنك بين أيدي أمينة.

تغمض علياء عينيها من شدة الخوف وتقرر أن تستسلم لأمر الواقع، ووعدت نفسها ألا تفتح عينهما قبل سماع بكاء الطفل، ها هي علياء بغرفة التوليد ولادة سريعة وبسيطة وسهلة ، لم تتوقع علياء ذلك لكن هذا ما كان بالفعل لم تتعرض لأية معيقات أثناء الولادة وذلك لأنها كانت شديدة الحرص على أصغر التفاصيل التي تتعلق بصحتها وصحة طفلها، تخرج علياء من الغرفة تلك إلى غرفة أخرى عادية وتضع الممرضة بين يديها رضيعها الصغير، تطلب علياء دخول عمر للغرفة ، لتستشيره باسم لابنهما.

لطالما حلمت علياء باسم حصري لطفلها، لكت هذه المرة لا تريد أن تتخذ هذا القرار وحدها إنك تريد أن تنفذ رغبة عمر ووعدت نفسها أن تقبل الاسم الذي يختاره دون اعتراض، يقترب عمر من علياء ويحمل الصغير يؤذن بأذنه ثم يقول: بم نسميه يا علياء؟

قالت علياء: اختر أنت له اسما مناسبا.

يتلعثم عمر ويتردد برده ، فإنه قد تعود على المصادقة على القرارات وتنفيذها دون أن يتدخل في اتخاذها لكن اليوم تطلب علياء عكس ما كانت تريده تماما. ما الأمر يا ترى؟ يفكر عمر طويلا إنه يريد اسما يحمل دلالة معروفة ، تقطع علياء تذبذب أفكارك فتقول: ما بالك عمر ألم تجد اسما بعد؟

عمر: اختيار الاسم للطفل له أثر كبير في تكون شخصيته مستقبلا، وهذا ليس بالأمر الهين علياء لا أريد أن أختار اسما يعاب عليه ابني مستقبلا.

علياء: حسنا خذ وقتك .

عمر: وجدتها...وجدتها سأسميه مراد.

علياء: ولم مراد؟

عمر: لأنه لا يوجد أي اعتراض على هذا الاسم في العقيدة الإسلامية ، وقد سميت به شخصيات معروفة وعريقة وناجحة، ولا ننسى أن اسم مراد له إيقاعا موسيقيا رائعا لدى السامع.

علياء: ما شأن كل هذا باختيار اسم لطفل صغير، لكن بم يتميز مراد لإعجابك به هكذا؟

عمر: حامل اسم مراد معروف بشجاعته وقوته وإقدامه على الخير، كما يتميز بشخصية جذابة تجعله يستوطن قلوب الآخرين ويكون محبوبا، لكن هذا لا يعني أنه شخصا مثاليا لا بل إنه يتميز بعصبية قاهرة وأنانية مفرطة بالحب، ألا يكفيك هذا للإعجاب باسم مراد؟

علياء: بلى إن صفاته رائعة جدا أوافقك الرأي إذن اسم ابننا هو مراد، لكن منى لم اخترت لها الاسم؟

عمر: نعم كنت أحلم دائما بمنى وأردد اسمها أثناء غفوتي، هذا ما جعل زينب تسميها منى، وقد قالت أن لا معنى لحياة الإنسان إن لم تكن منى موجودة بها، تقصد بذلك الأمنية.

علياء : أمر رائع ، لم أكن أعلم بشأن هذا أنا كنت سأسميه حمزة لكن دون معرفة معنى ذلك .

عمر : الآن قُضي الأمر ، اسمه مراد وفقط وأتمنى أن يحقق مراده دائما.

بعد تسمية الطفل يخرج عمر ليستفسر عن حالة علياء من الطبيب ، فيقول له أن كل المعطيات سليمة وجيدة ويمكنها مغادرة المستشفى غدا ، لكن علينا تناول الدواء بانتظام ، يوافق عمر كلام عمر ويحمل رسالته إلى علياء، إذ بها تفرح كثيرا...أخيرا ستغادر هذا المكان الذي تراه مخيفا ولا يشعرها بالراحة.

في الصباح الباكر يستعد عمر للخروج من البيت متجها إلى المستشفى ليتمم إجراءات خروج علياء، ويقرر أن يمر على مدرسة منى ليصطحبها معه ، ها هو يخرج من بيته متحمسا مسرورا أخيرا اكتملت عائلته و لم تعد منى وحيدة، هذا تصور عمر لكن علياء لها رأي آخر .

وصل عمر إلى المدرسة وها هو يدخل مكتب المديرة ، يلقي التحية ثم يطلب إذنها لاصطحاب منى معه للبيت لتحضر حفل استقبال أخاها ، وافقت المديرة لطلب عمر وفرحت لهذا الخبر كما أنها أشارت له عن غيابه المتكرر بالزيارات ، وهذا أمر غير محبذ لأن نفسية منى استاءت آخر فترة ولم تعد تكلم أي أحد في المدرسة ، وأثناء الاستراحة تكتفي المسكينة بالجلوس بإحدى زوايا الفناء وهي تعانق صورة فوتوغرافية أظنها كانت صورتك مع والدتها؟

يندهش عمر لهذا الخبر ويرد على المديرة: لم تأخذ منى أية صورة من صوري مع والدتها، كان عمر يقصد علياء بكلامه.

المديرة: بلا يا سيدي عندما اقتربت من منى وسألتها عن الصورة قالت إنها لوالديَّ وما إن تفقدت الصورة وجدتك وزوجتك تعانقان منى.

حينها وأول مرة بعد رحيل زينب يشعر عمر بالندم، لأن تلك الفتاة الصغيرة البريئة بدأت بربط الأحداث وهي الآن على وشك تفسيرها ، اغرورقت عيناه بالدمع وهم بالرحيل رفقة منى ، وهو شارد الذهن، شاحب اللون، تبدو عليه سمات القلق والتوتر، فعلا إنها يشعر بالخوف من الحقيقة التي هي الآن تحوم بمنى، لا يريدها أن تكشف الأمر لأنه متيقن بأنه سيكون شديد الوقع عليها، كما أنه قد يدخلها بدوامة نفسية تجعلها تكره عمر ، وهذا هو الأسوء، ابنة تكره والدها.

لزمت منى الصمت كغير العادة ورافقت والدها إلى وجهته دون سؤاله عن ذلك، لم ينتبه عمر للأمر لأنه كان منشغلا بالتفكير، ها هما يصلان إلى المستشفى يستعملان الدرج للوصول إلى غرفة علياء، يدخلان إليها تلقي منى التحية على علياء وتعانقها، ثم تقبل لتقبل على أخيها فتمنعها علياء من ذلك، وشاح الكذب والخداع يوشك أن يسقط عن وجه علياء، لكن سرعان ما

انتبهت لذلك فقالت: منى إنه صغير جدا وأنت لا تعرفين كيف تحملينه بين يديك ، تعالي إليَّ سأساعدك بحمله.

تساعد علياء منى لحمل مراد وما إن تقبله تأخذه منها بسرعة، في حين كان عمر منشغلا بدفع فاتورة المستشفى ثم سرعان ما عاد إليها فحمل الحقيبة ، حملت علياء مراد وخرجا من المستشفى وتركا منى وراءهما لم يهتم لأمرها أحد، بدأت أحاسيس ومشاعر منى تثور ، أظن في طريقها للنضوج ، لا بأس تواصل منى سيرها تنتظر ولوج علياء لسيارة الأجرة ثم تتبعها هي، لم تسأل علياء منى عن حالها ولم تكترث لأمرها، لكن كل هذا وجدته البريئة لا بأس به فإنها تقول : والدتي مريضة وتحتاجني بجانبها لأهتم بها وبأخي.

تفكير منى كان يعاكس تفكير علياء، فإنها لم تفكر يوما بسوء اتجاهها رغم قسوتها عليها، فإنها تدفع سيئات علياء بحسناتها، لكن ما وجدت مقابل ذلك غير الأسى والمعاناة والألم،إنها البراءة يا بني.

وصلت العائلة إلى بيتها أخيرا ، ملامح الفرح والسرور تعتلي وجه علياء وعمر والصغيرة تبتسم لفرح والديها ، أخيرا ستطلق العنان لأفراحها لتتراقص على ألحان البلبل الشادي على طرف

ذلك الوادي أين كانت منى تسترخي وتحاول كتابة أحلامها على لوح السماء، وتتحرق شوقا لموعد ترجمتها لها.

تسرع منى تحضر فراش علياء ومهد الصغير كأنها ربة بيت محترفة ، فعلا قد تعلمت كل ذلك من علياء التي كانت تطلب مساعدتها في أداء الواجبات المنزلية، حينما ألاحظ اهتمام منى بعلياء يُملأ قلبي حزنا وحسرة على حياة الصغيرة التي حُجبت وراء الظلال ، صغيرة للأسف فؤادها لن يقوى على التحمل ، والآن حان موعد حفل استقبال مراد ، يفكر عمر لاقتناء هدية مختلفة لعلياء ، بينما كانت تفكر هي بأمر معين ، كعادتها تحب الهدايا التي تنمو وتكبر لا الهدايا التي تكسر وتنسى.

عمر يدخل إلى غرفة علياء ليسألها إن كانت تريد شيئا معينا ، وهذا الأمر أسعد علياء فإنها على بعد عتبة واحدة لتحقيق آمالها، كيف لا وهي من خطط لذلك منذ البداية ، لقد بدأن أشعر أن علياء تعاني مرضا نفسيا ، لكن لم يكن يظهر هذا لعمر ، الذي كان أسير شباكها فكلما نوى الهرب رمت بطعم جديد.

امرأة قوية صلبة لا تستسلم ، تهوى المغامرات ، تكتب انتصاراتها، ولا مجال للهزيمة ، لكن كل هذه القصص لا بد من أن تكون لها ضحية تدفع ثمن خطط علياء، يا ترى من ستكون الضحية؟

فعلا جدي كنت أفكر بالموضوع ذاته، كل هذه الحفر من سيسقط بها ؟

الجد: لا تظن يا بني أن علياء ستسلم من عقاب القدر، أبدا...ستدفع الثمن غاليا وتنهد مملكتها فوق رأسها ، لكن أتمنى أن لا تتأذى منى من هذا الأمر كله.

بعدها يسأل عمر علياء: هل تريدين هدية معينة يا حلوتي؟

علياء: أريد هدية تنمو وتكبر ، كما يكبر حبي لك .

عمر يضحك ثم يجيبها: لقد فهمت قصدتك تفضلي هذا.

علياء: ما هذا؟

عمر: إنه عقد المحل الثاني لقد سجلته باسمك ، عليك التوقيع حتى أسجله بمصالح العقار.

تفرح علياء كثيرا وتتعجب: يا إلهي هدفي هذا لم يكلفني الكثير من الجهد .

وقعت علياء الأوراق ، والآن هي المالكة الوحيدة لسلسلة محلات {الرزاق} للملابس الجاهزة، الآن ستفكر بطريقة جديدة تجعلها تتربع عرش التجارة لتكون سيدة أعمال عصرية ومحترفة.

أتجهز لأبدو بأبهى طلَة ، أحاول استقطاب الأنظار، إنها فرصتي سأقابل أشخاصا من المدينة التي لم أستطع زيارتها يوما بسبب

آلام بقدمي، نعم لقد ارتديت أجمل طاقم عندي ووضعت عطرا فاخرا مستوحى من أزهى الورود، ربطة عنق أنيقة ،تسريحة شعر ساحرة ، ها أنا أنزل عن كوخي هذا متوجها إلى بيت عمر لحضور حفل استقبال مراد، لقد كان الأمر مختلفا جدا هذه المرة، حفل حضري بمعايير المدينة لكن وسط القرية، يعتريني تردد لدخول البيت، لكن ما طال وقوفي حتى شدت منى بيدي وهي تدعوني للدخول، رأيتها تتطاير هنا وهناك كتطاير الحمائم البيضاء على المروج الخضراء، وهي تردد أنغام وألحان خطفتها من أشعة السعادة تلك لتعبر عن ما يختلج صدها الدافئ ، فاضت عيناي بالدمع المترقرق ما إن لامست فرحة منى، كم كنت أتمنى أن تطول؟

بعد إصرار منى أجد نفسي أجلس على ذلك الكرسي وسط الصالون أراقب تحركات الضيوف، وتخترق آذاني ضحكاتهم وكلماتهم العفوية، شخوص لم أر قبلا مثلهم ، بملابس فاخرة شبه عارية، وتسريحات شعر غريبة، ما إن سألت منى عن ذلك، أجابتني مازحة: إنها ما يسمونها الموضة يا جدي، لكن لا تسألني عن معناها لأنني لم أفهمه بعد.

بعد مغادرة منى أحدث نفسي قائلا: فعلا إنها الموضة يا منى التي سرقت والدك من زينب، لم يكن الحفل مسليا بالنسبة لي لأنني

أشعر بالغرابة بين هؤلاء الناس، لكن اكتفيت بمراقبة منى وهي تداعب الفرح فبعد فترة طويلة أراها سعيدة ،لكن ما طال ذلك حتى أقبلت إليها علياء وهي شديدة الغضب تؤنبها على تأخرها لتقديم الضيافة لصديقاتها، لم تقدم علياء منى لضيوفها فإنها اختارت أن تكون نادلا بالحفل لا غير لم يعجبني الأمر ولا يسعني التدخل ،وها هي سعادة منى تلبس حجابها من جديد تنوي مغادرة هذا الفؤاد، أخشى أن لا تعاود زيارتها، أخشى أن تنسى السعادة عنوان منى، أخشى على الصغيرة مصاحبة الألم والسهر، وفعلا السعادة لم تتعرف على منى منذ ذلك الحين، وها أنا أشاهدها بصمت ، مكبل اليدين ، مطبق الشفتين ، أتعبني حالها وهي تتوارى عن أندادها من أبناء صديقات علياء، فكانت منى ترتدي لباسا فضفاضا عاديا ، خفيفُ قماشُه، باهتُ لونُه ، بينما كانت البنات ترتدين أجمل و أروع ما صممته علياء آخر فترة، يا ترى كيف لي أن أفك أصفاد الخجل والحزن التي قُيدت بها منى؟

كل هذا حدث أما عينيك ، ولم تستطع تحذير عمر وتنبيهه؟

يا بني عمر كان تحت تخدير علياء لا يقوى على تبين الحق من الباطل ولا الحقيقة من الكذب، فإنه لا يسمع إلا صوت علياء، ولا يفقه إلا كلامها، وأنا متأكد أنه لن يصدقني مهما فعلت ، لهذا

كنت أكتفي بالدعاء لمنى، ربّما هذا سيساعدها، اعذر قلة حيلتي، وضعف همتي، وخوف كلمتي، فإني رجل شاخ على كتب المبادئ والقيم ولن أسمح بتدنيس سيرتي، فإن علياء قد تتهمني بالكذب، أو بالجنون حتى ،هل يروق لك هذا؟

حسنا ، أعتذر جدي لم أقصد ذلك.

لا عليك بني ، نعود إلى منى وحفل الاستقبال الملكي ، تتمايل علياء هنا وهناك تتفاخر بأعمالها ومحلاتها وغير ذلك، كانت نظرات الناس إليها تحمل الشفقة بدل الحب والاحترام، بينما كانت تظن أنها قد تربعت قلوبهم وملكت عقولهم، وأثارت غيرتهم، وأنها محبوبة عندهم، لكن الواقع كان عكس ما تخيلته علياء، لأن المكانة التي تفتخر بها اليوم ، لم تحزها إلا عن طريق الخيانة والغدر والنصب، فهم يحبون أعمالها ونجاحها ، لا يحبون شخصها، يا ترى كيف تكون ردة فعلها حينما تصطدم بهذا الواقع المر ؟

فعلا إنني أشفق عليها كثيرا، علياء رغم ثقافتها وعلمها ، كانت تجهل أن الفقر الحقيقي هم فقر الأخلاق والأحباب، هو حينما يجد المرء نفسه وحيدا يتقلب بين الأحزان والآلام، لا صديق له يشفع، ولا مشفق لحاله يسمع، ولا حجر لحاله يدمع، إنها عاقبة الطمع، ووحش الجشع ، يدفعك لرغبتك فتركع، بعدها يجعلك

تنغمس بوحل الحقارة والجهل والوحدة والكره، فيئن فؤادك أنينا ملتحفا بالرجاء والاستغاثة ، لكن حينها تجد نفسك غريبا، تتوارى وراء حجاب الاكتئاب ، لعل الناس تشفق لحالك، وتغفر أخطاءك ، وتجد بنظرات الشفقة مثوى آلامك، لكن أنت لا تعلم أن الشفقة أشد الآلام قسوة، إنني أخشى على علياء من هذا الوضع، فبقصص الأولين ما سلم من سوء العاقبة صاحب الطمع، ليتها توقف ضجة أفكارها برهة لتوقظ ضميرها الذي قيدته بأصفاد الأنانية ،ليتها تسمع مرة واحدة صوت الحق داخلها، ليتها تطلب النصيحة ، ليتها تضجر من حالها وتغير قيمها الدنيئة وحيلها القذرة ، حتى تتمكن من الخروج بأقل خسائر من هذا المستنقع الذي رمت نفسها فيه دون التفكير في عواقب ذلك.

كانت تظن علياء أنها تسير نحو الغنى أو كما كانت تسميه وفق قاموسيها أنه المُلك ، تحلم بالنجومية في عالم الأزياء والموضة، وتسعى لتحقيق ذلك من خلال علاقاتها التجارية التي ستحققها مؤخرا .

لازال الحفل مستمرا ، ودام إلى ساعة متأخرة من الليل ، لكنني غادرته فور رؤيتي دموع منى، فإنها كانت تجلس وحيدة على عتبة المنزل، بملابسها المتواضعة تلك التي لا تكاد تخفي جسمها

بالكامل وتحميها من قسوة برد الليل، جلست بجانبها محاولا التخفيف من آلامها بنكتي الظريفة كالعادة، لكنها لم تأبه للأمر، أو ربما لم تنتبه لوجودي، مسكت يدها وضممتها إلى صدري وقلت:

لا عليك طفلتي ،تعلمين مزاج أمك يواجه عواصف كثيرة هذه الفترة، فلا تهتمي لذلك.

اقشعر جسمي من برودة ردها وهي تقول: يا جدي العزيز ، للأسف لم أعد تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تحاول إرضاء غيرها، وتساير طبائعهم، الآن أنا أتعلم وقد بدأت أقارن ما تعلمته مع الواقع الذي أعشيه، فوجدتهما بعيدان كل البعد عن بعضهما، هذا ما جعلني أشك بوجود سر ما، يعمل أبي وأمي على إخفاءه، لكن إلى متى يدوم هذا الوضع يا جدي؟ سأكشف السر عاجلا أم آجلا.

ويح ..عمر وعلياء...الصغيرة تبحث عن حل الألغاز، وتسعى لتبديد ظلام الكذب لتشع الحقيقة بحياتها ، لكن هذا الشعاع سيحرق علياء وعمر، ويكفهما حب منى ثمنا لكذبهم.

صباح اليوم الموالي، تستيقظ علياء باكرا كعادتها لتحضر فطور الصباح وقهوة عمر وغير ذلك من أعمالها المنزلية الروتينية التي تعودت على أن تبدأ يومها بها، ثم تتجه نحو غرفة منى لتوقظها

وتأمرها بالاستعداد للذهاب إلى المدرسة ، لكن أبت منى أن تغادر المنزل اليوم لأنها تريد أن تقضي وقتا أطول مع عائلتها ، تجادلت علياء مع منى طويلا ثم شدتها بقوة من ضفائرها ورمتها داخل الحمام حتى تستحم، أعلت منى صرخاتها ونواحها، إنها لأول مرة تقرر التمرد على قرارات علياء ظنا منها أن عمر سيسمعها ويسألها عن الأمر ، فتتسنى لها فرصة لإخباره عن معاملة علياء معها، لكن للأسف خاب ظنها مرة أخرى، فها هي تجد علياء وراءها تمشط شعرها وهي تمازحها قبل أن يصل عمر إلى الغرفة ، وما إن وصل عمر إليها سأل علياء: ما الأمر؟

تجيبه علياء : لا تكترث للأمر عزيزي، إنها تفعل هكذا دائما عندما أنوي تمشيط شعرها.

عمر: حسنا ..الأمر هكذا إذن منى تريد الهرب منك لهذا السبب، صغيرتي دعيها تسرح شعرك وهلم للبس ملابسك، لا أريد أن نتأخر عن موعد المدرسة.

منى تجيب والدها وهي حزينة لأن خطتها فشلت :حسنا أبي ....ثوان وألحق بك.

تلملم منى ذكرياتها من غرفتها كأنها تودعها، هي لم تعلم بعد ما تنوي فعله علياء، رغم هذا ها هي تحدق هنا وهناك، تلامس لوحاتها البسيطة المعلقة على جدار الغرفة، ثم بعد ذلك تغادر

البيت مع عمر إلى المدرسة، لم نر منى بعد ذلك الحين لمدة طويلة من الزمن، وصلت الصغيرة إل مدرستها يقصد والدها غرفة المديرة بينما تمشي هي شاردة الذهن برواق المدرسة تصطدم بالتلاميذ تارة ، وتارة أخرى بالجدار، لا أعلم فيما كانت تمعن التفكير بهذا الشكل الدقيق؟ أيمكن فعلا أنها على أبواب فهم الحقيقة؟

لا..لا أظن ذلك لأن خطط علياء لا يفهمها إلا اللبيب قوي الذاكرة، واسع الخيال، دقيق النظر، ومنى لم يكتمل نضج عليها بعد، ولم يستسق من العلوم ما يكفيها لفهم هذه الملابسات المعقدة، فإنها لا تتمتع بمهارة التحليل والتركيب التي نجدها عند الشخص البالغ فقط، هكذا كنت أفكر ولم أشك للحظة أن عقل منى استلهم من الواقع ما يكفيه ليكبر عشر سنوات قبل عمرها ،فعلا كانت الصغيرة تراقب صديقاتها أثناء زيارة أمهاتهم وعائلاتهم وبدأت تربط الأحداث، وتضع استفهاما بعد كل صورة تلاحظها أمامها.

يا ترى لماذا لا تزورني أمي أيضا؟ لماذا يأتي أبي بمفرده؟ لماذا أشعر بمثل ما تشعر زميلاتي ؟

حاصرت الحيرة منى من كل الجوانب ، لتجعها تنطوي على نفسها، لا تحدث أحدا ولا تتفاعل من معلميها، هذا ما خشيت

حدوثه المديرة ونبهت عمر لخطورة عمر، لم يكن يعلم أنها قد تدخل حالة نفسية معقدة يصعب علاجها، فالإنسان اجتماعي بطبعه ولا يقوى على تحمل الوحدة إلا إذا كان يعاني من أمراض نفسية ، وهذا هو حال منى الآن، تثور غضبا لأتفه الأسباب، تبحر مدة طويلة وهي شاردة الذهن لا تشارك أقرانها في أي نشاط كان تعليمي أو ترفيهي.

بعد هذا ، وخوفا من تدهور حالة منى أكثر قررت المعلمة تبليغ المديرة لتتخذ الإجراءات اللازمة في أقرب الآجال، حينها اقترحت المديرة بعرض منى على المستشار النفساني التابع للمدرسة، لكن اعترضت المعلمة قرار المديرة، وقالت ألا يجب تبليغ والدها قبل ذلك؟

تحيلها المديرة: لقد نبهته مرارا وتكرارا قبل حدوث هذا، لكنني وجدته لا يعير الأمر اهتماما،مم جعلني أشك..لا بل أتأكد أن حالة منى سببها ظروف عائلية، لهذا علينا مساعدة الطفلة قبل أن يفوت الأوان.

بعد سماع هذا وافقت المعلمة على كلام المديرة ، وها هما تحاولان التقرب من منى ومحادثتها عن أمور عائلتها ، فجأة تنهار منى بالبكاء والصراخ ، فما وجدا بدا غير اصطحابها إلى طبيب المدرسة ليكشف عن الأمر.

تمر أيام وأيام ...منى...تداوم على جلساتها المسطرة مع طبيبها النفساني الذي فتح لها آفاقا للأحلام حتى تجد ذاتها الضائعة بين كومة الخردوات تلك التي أهملتها ذاكرتها منذ وقت طويل، وأيضا تحرص على تحصيل النجاح بدراستها فإنها ، تحاول الهروب من بحر همومها إلى شاطئ الدراسة لرُب تجد مجدافا يمكنها من السباحة بهذا البحر دون الغرق فيه، إنها تجد كتبها وخربشتها على دفاترها هي الخلاص الوحيد من السبح الذي يطاردها دائما، فإنه لم يكتف بمطاردة أحلامها فقط، بل ها هو يلاحق واقعها أيضا، تتنبه منى أخيرا كأنها استيقظت من سبات عميق لتسأل المديرة عن والدها ووالدتها، لكن تتهرب المعلمات المديرة من إجابة منى، مسكينة إنها قد خرجت مؤخرا من حالتها السيئة فلا يريدونها أن تدخل دوامة الشك مجددا، إنها أصغر من أن تتجرع كؤوس الهم المر.

فعلا كانت الحقيقة أن عمر لم يذهب لزيارة منى منذ ثلاثة أسابيع، ولا يملك فكرة عما يحدث مع أميرته، كيف يشعر بذلك ؟ إن كان يقضي وقته مع مراد وهو يلاعبه على منكبيه دائما، لم تعد منى موجودة بمخيلته، صدق من قال بعيد عن القلب من غاب عن العين.

تسير حياة منى على الوتيرة ذاتها ، وتتأمل زيارة والدها يوما ما، وتكتفي بضم صورة ومحادثته سرا بعد أن تنام صديقتها، إنها لا تكشف دموعها لأحد، يا إلهي....صغيرة لكنها قوية، كانت تقول دائما أن عمر هو من علمن حجب دموعها عن الناس، صغيرتي نتألم خلسة..حتى نحتفظ بكرامتنا...ونسعد جهرا..حتى نسعد من حولنا، فعلا إنها حكمة رائعة غرسها عمر بذهن الصغيرة.

أوشك الأسبوع الرابع على أن ينتهي..لكن هذه المرة لا يتخلف عمر عن موعد الزيارة، وأخيرا ها قد أقبل وهو مثقل اليدين بالهدايا والملابس لأميرته، ما إن يبلغها الخبر، تنزل إليه بسرعة البرق تعانقه بشدة وتسقط عليه وابلا من كلمات اللوم والعتاب التي صاغها الشوق ، وخطتها الذكريات، لتحفظها ذاكرتها للموعد المحدد، يمسك عمر هو آخر منى بقوة ويهدأ من روعها، إنه يشرح لها أنه أُجبر على الغياب، ووعدها أن لا يتكرر الأمر ثانية، أخيرا تشعر روح منى بالسلام ، وتقول له:

لم أحزن بسبب غيابك وإهمالك لي، بل كنت أريد الاطمئنان على حالته ، يكفيني أن تكون بخير يا أبي.

هكذا هي منى تتعلم وتطبق، وهي الآن عملت بحكمة والدها معه أيضا إنها تضمر تلك الأحزان التي كانت تسبح بفضاء

قلبها، ليس لأمر سوى حفاظها على سعادة والدها، إنها لا ترغب بأن يحمل هم آلامها وأحزانها على كتفيه.

صحيح أن منى لم تنشأ مع والدتها، لكنها أخذت الكثير من صفاتها بحكم الفطرة، كما أن عمر قد نقل إليها الكثير مما تيسر عليه تعلمه من زينب، إذن بلا وعي عمر الآن سيساعد لولادة زينب وشخصيتها بابنتها منى، لو كانت علياء هنا لمنعت حدوث الأمر، لكن لا يتفرد عمر بابنته إلا في هذه الزيارات القصيرة التي بات الآن يقوم بها خفية عن علياء، فهي قد منعته مرارا وتكرارا من زيارة منى لأسباب مختلفة كانت تراها بصالحها، مرة تقول أنها متبعة، ومرة تقول أنه موعد لقاح مراد....وهكذا حتى لا تسمح لهما باللقاء،لأن هذا كان يهدد سلامها وبقاءها، فهي كانت تخشى أن تفصح منى عن معاملتها السيئة معها، مما يُغضب عمر ويجعله يستاء منها، لكن منى لم تكن تتمتع بالحيل التي تتميز بها علياء.

مرت سنوات طويلة وبقي الحال على هو عليه، تعافت منى من حالتها النفسية وتمكنت من اجتياز هذه المرحلة بامتياز والآن هي تشرف على المحطة الثانية من حياتها،يداوم عمر في سرقة تلك الساعات القليلة من وقته ليزور منى، وفي السنوات الأخيرة أخذها لتقضي العطلة بالبيت معهم، لكن هذه السنة اختلف

الأمر ،فإن منى تأبى على مرافقة والدها وهي تفضل أن تذهب إلى المخيم الأدبي الذي خططت له إدارة المدرسة، بالتأكيد لم يعارض عمر الأمر لأنه كان يلاحظ إصرار منى واجتهادها لنيل أعلى المراتب فلم يشأ أن يكون معيقا بطريق أحلامها، في هذا الوقت كانت علياء قد غيرت ديكور الغرفة لتصبح مناسبة لمراد، غيرت لون الغرفة ، ورمت بلوازم منى وحاجياتها أسفل القبو، إنها تريد دفنها وهي لازالت تصارع مصاعب الحياة وتستنجد من كتبها علما يضاهي علم علياء ويقضي على حيلها، لكن يا ترى هل ستتمكن الصغيرة من كسب هذه المباراة التي كانت علياء تسيطر على الكرة فيها دائما ولم يتسن لمنى اللعب ،وإن سنحت لها الفرصة بذلك ،فإنها لا تتمتع بربع جدارة واحتراف علياء؟

لكن منى لم تُحجم عن قرارها لكشف الأسرار ،فإنها تريد وضع النقاط على الحروف وجمع الكلمات المتقطعة تلك ،حتى تتضح الصورة جلية أمامها، إنها سئمت الغموض، وضجرت من الوحدة، وها هي تتحدى شبح كوابيسها الليلية بكل شجاعة لتتمكن من إزالة الغطاء الأسود الذي لطالما اختفت فيه الوجوه بأحلامها، إنها تتساءل من هؤلاء الأشخاص؟ وما هي علاقتي بهم؟ يراودها شبح ينوي قتلها ، فيطاردها من مكان لمكان، إنها

تتوارى وراء الجدران، تحترف الصمت والكتمان، فاقدة السكينة والأمان، إنها تتهرب من لقاء وسادتها لأنها ترغب في الهروب من هذا الشبح، لكن هل يسمح لها بالعبور؟

بالطبع لا ...منى الآن هي أسيرة شبح لا يهزم، يصاحب الليل فيهجم، يخفي هويته ويكتم ،لكن إلى متى يطول الظلام هذا؟ فإن كل ليل لا بد من يكون له فجر.

بالصباح الباكر تستيقظ منى في خيمتها بالمخيم، تكتب ما تسنى لها حفظه من كوابيسها لليلة الماضية، ربما هي حروف، أو كلمات، أو وجوه مشوهة تحاول التعرف عليها، إنها تشك أن مفتاح السر يكمن بكوابيسها، وذلك لأنها تتكرر معها كل ليلة ،بشكل مختلف لكن الشبح يبقى نفسه.

حالة من الشتات والتوتر فمنى الآن أشبه بمن يخاطب رفات ميت ،فيجادله بالحق مرة، ويعاتبه مرة أخرى، لكن هل يستطيع الإنسان أن يكلم رفات شخص ميت؟ هل يستطيع مسك الظلال؟ بالطبع لا ، إذن هذا ما يحدث مع منى فإنها تسبح بدوامة من الشكوك والخوف والحيرة ، جعلتها تفقد ثقتها بالأشخاص حولها، إنها لم تبح بهذه الأمور للمديرة ولا للمعلمة ولا حتى لوالدها، إنها كانت تخشى تكذيبهم لا تصديقهم، تخشى اتهامها بالجنون، وعودتها إلى الجلسات النفسانية.

في الجانب الآخر من المحطة ، نجد علياء التي أصبحت تاجرة محترفة ، ورسمت لنفسها مكانة بين أفراد المجتمع الراقي بالمدينة ، إنها لا تكاد تعود لبيتها بالقرية ، لأنها منشغلة بتحقيق الشهرة ،وتنمية المال والرزق، قد رافقها في كل خطوة من خطواتها مسعف حظها فإنه تراه المراد لأنه مراد الذي أنار حياتها وجعلها أكثر رفاهية، مراد يبلغ من العمر أربع سنوات يرافق والدته في جولاتها التجارية، لأنها تراه بطاقتها المربحة التي لا يمكنها الاستغناء عنها، في حين أن عمر كان يرعى الأغنام أياما وأياما أخرى ينزل إلى المحلات ليتفقد دفاتر الحسابات ويدفع الضرائب وغير ذلك من الإجراءات التجارية التي كانت تراه علياء أنه جدير بها ولا تستطيع أن تسلم هذه المهام لأي عامل بالمحل، بعد أن كبر الرزق أكثر كانت تنوي لفتح مصنعا للملابس ، لكن لا أعلم إن كان سيسعفها الحظ هذه المرة؟

تغيرت معاملة علياء لعمر، فأصبحت فظة الكلام، مُرة الحروف ، فهو يراها تلقي السموم بدل الكلمات، لكن إلى متى يتحمل عمر هذه اللدغات ، التي توشك أن تقضي عليه؟

انقلبت حياته رأسا على عقب، فمنى بعيدة الآن ، ولا صديق له، وعلياء أصبحت لا تطاق، أما مراد فإنه لا يعي من الأمر شيئا، إذن لمن يفتح قلبه هذا المسكين؟

مرت الليلة الثانية بالمخيم، كان ليلها يشبه سابقه عند منى، لأنها فتحت الكتاب نفسه لكن لم يتسنى لها قراءة مضمونه، إنه يسدل ستارا سوداء تحجب نظر منى وتشوش تفكيرها مما يسهل عليه إركابها وزرع الرعب بقلبها، لا أعلم إن كانت هذه الكوابيس هي ماض يطارد منى؟ أم أنها إشارات تريد توضيح لها النهج القويم في حياتها؟ وإن كان الأمر كذلك فإني أجد احتمالين : الأول هو أن هذا الشبح هو علياء بالواقع تجسدت بطريقة وهمية رسمها خيال منى، نتيجة للظروف التي عايشتها معها، أما الاحتمال الثاني وهو بعيد نوعا ما ،أرى الشبح يريد مساعدة منى لكشف المستور، إن كان الاحتمال الأول صادق فهذا عادي بالنسبة لي، لكن إن كان الاحتمال الثاني هو الصادق ،فإني سأزداد حيرة ، لأن الشبح يخيف منى ويرعبها بدل تهدئتها ويخفي وجهه عنها.

لكن أيها الجد أحيانا تراودنا مثل هذه الأحلام المفزعة التي لا تتضح وجوه أصحابها لنا ، ربما لأنها تنتظر الوقت المناسب، أو أنها تريد منا نحن فك هذه الشفرات لنتمكن من العبور إليها.

فعلا....صدقت يا بني أظن الشبح هذا ينتظر وقتا مناسبا ليزيل الغطاء عن وجهه ويكشف عن شخصه لمنى، لكن أتمنى أن يكون شبحا خيرا ،يساعدها ،لا يزيد همومها.

تنقلت منى مع المخيم مدة شهر كاملة ، تداعب أشعة السعادة ببَنانها الصغيرة ، تكسر قيود الوحدة وتتحدى الألم، إنها تمشي بقدمين داميتين لكنها لم تتوقف، فؤادها الصغير الذي طال أنينه ،الآن تجعل جروحه تنزف أفراحا بدل الدم..لأنه ترى أنها أدمته بالدمع ما يكفيه.

صغيرتي منى ...من أين لك هذه الشجاعة؟ والصبر والقدرة على التجمل؟

أظنها صادقت الآلام ؟والآن تجعلها تتراقص على أنغامها ، تعزف منى المقطوعة الحزينة تلك من قصائد الألم لتبهر الناس بصبرها وحكمتها في التخلص من الحزن، تقول كما قال والدها ذات يوم: منى إن نزفت يوما ألما فصاحبيه، والدمع فهجريه، والحزن فنكريه ، والواقع تحمليه، والفرح فزوريه، نعم منى الآن قد زورت الضحكات تلك حتى تنسى بعضا من مأساتها، لم تكن تعلم أن هذه آخر أيامها بالمدرسة، فها هي تقطف أجمل الذكريات لتحتفظ بها بمزهريتها الوردية بغرفتها التي لن تجدها كما تركتها،لأن علياء فعلت بها ما لا تحبذه منى.

انقضت العطلة وأشرف المخيم على المغادرة، تلملم منى حقيبتها وحاجياتها ، تضع بين ملابسها ذلك الصندوق الذي لم تفتحه

بعد، وأضافت مذكرة صغيرة جلبها لها عمر بآخر زيارة، كانت قد زينت سطورها ببعض الذكريات التي عاشتها بالمدرسة.

أخيرا بعد طول غياب ستعود منى، يقول عمر، قد كان يراقب التاريخ بشكل مستمر لهفة للقاء منى، التي بات الآن يراها ملاذه الآمن الذي لن يُلذغ فيه، ولن يطرده منه أحد، إنه عرشه وسيبقى، لأنه هكذا وعدته منى بقولها: أبي...ملك عرشي أنت...لم ينزلك عنه أحد..ولا منازع فيه، وإني أعدك بذلك.

بعد شهر من مغادرة منى ، عمر يقف أمام باب المدرسة مترقبا عودة الحافلة في أية لحظة، بعد ساعات من الانتظار يلمح عمر الحافلة وهي تشق أنفاس الهواء العطر لتصل إليه أخيرا ......

تترجل منى ...من الحافلة مسرعة لحضن عمر فإنها لمحت يلوح لها من بعيد، فعلا كانت منى تتمنى أن ترى والدها هذا اليوم ....أخيرا تحقق واحدة من أمانيها التي طلبتها البريئة، لم يكن شوق عمر أقل من شوق ابنته إليه..لحظات اللقاء هذه تلتمس فيها جانبا من الندم والحسرة التي جاهد عمر لإخفائها، لكن لم يلاحظ أن ابنته لم تعد صغيرة ليحتال عليها بابتسامات زائفة ،فإنها الآن تستطيع تفسير حالة والدها من خلال تفحص ملامحه بدقة ،بعد أن عبر كل منهما عن حبه وشوقه ولهفته لرؤية الآخر ، يمسك عمر بيد منى ليصطحبها إلى البيت، إذ بها تبقى ساكنة لا

تبدي حراكا وتحاول جذبه إليها بمسكتها القوية ، التي كانت تعبر عن رفضها لمرافقته، التفت إليها عمر تأمل عينيها التي مُلأت بالدمع ، يسألها عن سبب رفضها فيقول: ما بالك صغيرتي ألا تريدين الذهاب معي لبيتنا ؟ مراد ينتظر وكذلك أمك.

منى: ألا لا أرفض مرافقتك أبي...لكن فقط أريد انتظار النتائج النهائية بالمدرسة ثم بعدها تعال لاصطحابي ، ولن يكون لي مانع حينها.

يوجه عمر نظره إلى المعلمة كأنه يسألها عن حال منى ، فتومئ برأسها حتى تظهر له علامة القبول.

عمر بعد استشارته المعلمة بإيماءات غريبة يوافق منى على بقاءها بالمدرسة فيقول: لا بأس سأسمح لك بالبقاء ، لكن هذه آخر مرة أقبل اعتراضك هذا.

منى: أعدك أبي ...سأرافقك بالمرة القادمة.

يودع عمر ابنته ويعود أدراجه إلى البيت ، فارغ اليدين، محطم الفؤاد، ليلامس الشوق من الجديد ، ويقول : لا بأس سأبقى وحيدا لمدة صغيرة أيضا ريثما تعود الأميرة، لا تيأس يا قلبي،هكذا كان عمر يزرع بذر الأمل والتفاؤل بقلبه حتى لا يفسح المجال للحزن ليستوطن فيه ويتغلغل داخله.

أما منى فإنها كانت ترتب حاجياتها ولوازمها في غرفتها بالنزل، وتتفقد أدواتها الجديدة ، ها هي أيضا قد ابتاعت لمعلمتها هدية متواضعة ،مضت سنوات على التحاق منى بالمدرسة والآن هي بالصف الرابع، قد تعلمت المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وهي اليوم تنوي التطلع إلى تلك المذكرات لتحطم أصفاد النسيان وتحدد حارس الأسرار الذي ما فارق الدفتر قط، تريد إزالة الغبار عنها وتركيب الحروف لعلها تجد مخرجا لنفسها ،إنها تظن أن قراءتها للمذكرات ستخلصها من ذلك الشبح الذي يطارد أحلامها، ربما هو كذلك؟ أو ربما ستكون جواز سفر منى عبر أحلامها لتكشف عن هذا الشبح؟

تتردد منى في فتح الدفتر...ثم تستجمع شجاعتها وتقدم على القراءة ، أول ما وجدته منى هو كالآتي:{ أنا زينب...والدتك يا صغيرتي لقد نسجت لك بعضا من ذكرياتي و مواقف حياتي لتتمكني من أخذها عبرة ببناء حياتك على النحو الصحيح، لا أعلم كم تبلغين من العمر اليوم...حينما تصفحت هذه المذكرات...لا أعلم إن كنت معك أم لا، إن القدر دائما يفاجئنا بقراراته العفوية، وإن الفراق لا بد منه لكن ما يسعدني الآن هو أنك قد كبرت يا طفلتي وأصبحت تفقهين كلماتي....

تتوقف منى عند نهايتها من الورقة الأولى لتسأل نفسها: والدتي؟ وعلياء من تكون؟ وإن كانت صادقة بقولها أين هي الآن ؟ ولمَ أخفى عني أبي حقيقة وجودها؟

كل هذا وغيره الكثير من الأسئلة التي تبادرت إلى ذهن منى بعد قراءتها تلك السطور، وقد كررت قراءتها مرات عديدة ،أمر محزن فعلا كأن زينب كانت تشعر أنها لن تر ابنتها وهي تكبر ، فخطت لها هذه المذكرات لترسم لنفسها صورة خيالية بمخيلة ابنتها من خلال فهمها لكلماتها هذه، فإنها سعت لترك ميراث مكتوب من الأخلاق والعبر التي عاشتها بحياتها، لتقتفي منى أثرها على درب الحياة لكن هذه المرة تصحح أخطاء زينب وتتجنبها.

فكرت منى طويلا في هذه الأسئلة ثم قررت مواصلة القراءة لعلها تجد أجوبتها بباقي الصفحات، بالصفحة الموالية تتحدث زينب عن حياتها ببيت والدها واجتهادها وتفوقها في المدرسة ، تفرح منى لهذه الكلمات ، فاحتفل قلبها كثيرا جند الفضول لتتعمق أكثر ، وها هي تجول من صفحة إلى أخرى، لتحط رحالها من جديد على سطور كانت تجدها شخصا يخاطب أفكارها، تعود لتجد زينب تتحدث عن مهنتها الجميلة التي تألقت بها دائما ، بعدها تدخل القصة منعرجا آخرا يجعل منى تتوتر كثيرا،

فالآن زينب قد اعترفت بحب عمر و تحدت والدها لأجل الزواج معه، إنها قد غادرت إلى قريته لتعيش مع والدته، بعدها تواصل القراءة لساعات وساعات ...حتى تصل إلى الأحداث المهمة والتي تمثلت في حمل زينب ومعاناتها مع المرض، لبرهة تظن منى أن والدتها زينب قد وافتها المنية، لكن إن كان كذلك لمً لا يزور والدي ثراها عند زيارتنا المقبرة؟ فقد كان يزور جدتي فقط؟ هكذا تساءلت منى، تنهدت طويلا ثم عادت لقلب الصفحة الموالية، تقرأ وتقرأ...إلى أن تتعرف على علياء وشخصيتها بالنسبة لوالدتها: علياء يا ابنتي هي أقرب صديقاتي بعد غيابها الطويل عادت لزيارتي لتبدد غياهب الضجر بحياتي ، وتؤنس وحدتي، وتكمل عائلتي،وتزيد فرحتي، أخيرا مُدت إليً يد تريد إخراجي من وحل الأحزان ، صديقتي تزورني لأول مرة بعد زواجي كنت حينها تبلغين من العمر سنتين، عادت علياء لتعود معها الفوضى بحياتي لأنها كانت لا تقوى على الهدوء، إنها تحبك كثيرا ...وأنا لا أطمئن عليك إلا معها ...لا أعلم كيف سيكون حالها في هذا اليوم ؟ يا ترى هل تزوجت؟ هل لها أولاد الآن؟ لا أعلم ربما هذا ما سيكون بالصفحات الموالية من حياتي لأخط على هذه المذكرات، إن وجدته يعني أنني موجودة، وإن لم تجديه هذه يعني أنني فارقت الحياة،

ربما...أو ابتعدت عنك...لا لا يمكنني التفكير في ذلك حتى ، إنك غاليتي ومنى حياتي ، وقرة عيني، وفرحة دنيتي، يا أميرتي، أتمنى أن أكون قد علمتك القليل من الخياطة إنها مهنة رائعة ومسلية، لكن لا أظن أن عمر سيسمح لي بذلك ، لأنه طالما ما أراد لك التفوق والنجاح إنه يحلم ليراك طبيبة أو معلمة ، يريد لك واقعا عكس واقعها، أتمنى أن يحقق وعده لك فعلا، لا عليك صغيرتي أينما كنت أتمنى أن يحيط بك سياج السعادة دائما.

باليوم الموالي تكتب لها زيارة علياء والعشاء الفاخر الذي أعدته لهم، تخبرها عن لذة الأكل وبراعة علياء بالطبخ وسعادتها بوجودها معها، ثم تقول لها أنها أصبحت صديقة لعمر أيضا إنها محبوبة ورائعة عندما تكبرين ستعرفين ذلك ...

بعد هذا تقلب الصفحة الموالية لتجدها بيضاء تماما تقلب باقي الصفحات ، الأمر ذاته للأسف مذكرات زينب توقفت هنا ، في هذا اليوم الذي طردت فيه من بيتها بأبشع الطرق، بدون أية شفقة ولا رحمة والمحزن كان هذا من أقرب الأشخاص لها، تحضن منى الدفتر وتبكي طويلا ...لأنها كشفت الأسرار، والآن تعلم سبب كره علياء لها وسبب حبها لمراد ونفورها منها ، إنها ليست أمي ...ليست أمي..صرخت منى، أماه أين أنت...؟

للأسف صغيرتي لا مجيب لندائك لأن الله وحده يعلم مكان والدتك الآن ، إن كانت لازالت على قيد الحياة، أو أصبحت نجما بالسماء يراقبك بصمت وسكون.

تمر أيام عديدة ومنى على الحال نفسه، تقلب الصفحات مرارا وتكرارا، ثم فجأة تعود لذلك الصندوق فتجد علبة صغيرة تفتحها ، إنها الأقراط التي وصلتها هدية لها من خالتها ،...مهلا وجدت قصاصة صغيرة...تقرأها ...صغيرتي هذه الهدية لك لا تفرطي فيها يوما أبدا، زالت وحشة منى وأشواقها لاحتضان والدتها، التي كانت تفكر بها حتى أثناء غيابها ، يا ترى ماذا ستفعل منى الآن؟ هل ستواجه والدها بالحقيقة التي عرفتها؟ أم أنها ستحتفظ بها لنفسها .

انتهت المدرسة وتم الإعلان عن النتائج وقد أحرزت منى تفوقا كبيرا، وجاء عمر بموعده المحدد ليأخذها إلى البيت، حملت منى أدواتها وحقيبتها ورافقت والدها، ابتلعت الصغيرة لسانها وهي لم تتفوه بنصف كلمة طول الطريق حتى وصلا إلى البيت ، تدخل منى ببيتها تتجه لغرفتها هاهي علياء بأول يوم توقفها عند عتبة الباب: رويدك...أين تذهبين؟

منى: أمي أنا ذاهبة إل غرفتي ، لآخذ قسطا من الراحة و بعدها نتكلم.

لم تعتد منى أن تُكلم علياء بهذا الشكل العصبي الثائر ، لكن للأسف الحقيقة التي صادفتها مؤخرا هي التي غيرت من معاملتها مع من حولها ، لأنها لازالت تائهة الأفكار ، وتريد توضيحات وإجابات عن أسئلتها لكن من أين لها هذا؟

تمسك علياء بمنى لتوقظها من شرودها هذا وتوجهها مشيرة بإصبعها إلى غرفتها الجديدة، وتقول:

هذه الغرفة هي حجرته الآن ، لأن مراد أخذ غرفتك القديمة ، هكذا أفضل.

ترى منى أن علياء قد تمادت بتصرفاتها كثيرا، لكن لم تشأ أن تجيبها ، وافقتها وذهبت إلى غرفتها الجديدة التي كانت بالطابق السفلي للبيت ،دخلت منى إلى الغرفة ،إذ بها تجد الجرذان والحشرات التي استقرت بها، كيف لها أن تنام في هذا الوضع الآن؟

تحمل منى غطاءها ووسادتها وتستلقي بالصالون قليلا، و تنوي ترتيب هذه الفوضى فور استيقاظها، حقا لا يشعر بآلامنا إلا من كنا لقربه أقرب، لكن للأسف أظن أن علياء لا قلب لها لتحب منى ولتعطف عليها إنها لا تعلم أن حيلها ستنقلب عليها سيلا لا يرحم ، ولن تجد يدا ترفعها إل الشاطئ .

بعد ساعتين استيقظت منى من غفوتها ، وها هي تتجه إلى حجرتها رفقة أدوات التنظيف وغير ذلك عازمة على جعلها أجمل من الغرفة السابقة، وفعلا أنهت أعمالها فيما يقارب ساعة من الزمن، أ إنها المعجزة؟ أم أنها الإرادة؟ أم هناك أمر تخفيه الصغيرة عنا؟

الحياة سفينة مثقلة بالركاب منهم الخير والشر ، وعليك حسن اختيار رفاقك وشركائك لهذه الرحلة، واحرص على أن لا تختار رفيق الشر فيغرق سفينتك، ليجعلك تعلي النحيب وتُسجن بين قضبان الندم التي لا يسعك تحطيمها بعد فوات الأوان.

أحيانا نتعدى على حقوق الآخرين ونظلمهم ،لكن رغم هذا يحافظون على حبنا داخل قلوبهم ، وهذا إن دل على شيء ،فإنه يدل على نبل أخلاقهم وعلو شأنهم، وقوة إيمانهم وصبرهم، وعفة أرواحهم التي جعلتهم يحترفون الصمت والعفو عن هفواتنا بدل الانتقام منا، لكن للأسف لا ندرك قيمة هؤلاء الأشخاص إلا بعد رحيلهم وهم محملون بأكياس مثقلة بالهموم والجروح وهي محكمة الإغلاق، إذن حينما ندرك أخطاءنا وننوي تصحيحها لا نجد هؤلاء الأشخاص، ربما لأنهم غادروا الوجود، أو ربما لأننا لم ندرك قيمة الموجود، وبات الألم هو العقاب الموعود، كيف نصحح هذه الهفوات؟ كيف يستطيع

الاعتذار أن يعيد روحا غادرت لمولاها؟ كيف للبكاء والنحيب أن يعيد من كان بحياتنا؟

إننا لا ندرك قيمة الشمعة الصغيرة الذابلة إلا وسط غياهب الليل الذي يطول بزوغ فجره.

هكذا يشعر عمر الآن، بعد رؤيته حالة منى التي رمتها علياء كرميها لكيس من النفايات، إنه يتألم ويضمر آلامه لأنه يرفض كشف الحقيقة تحسبا منه أنها ستجرح ابنته الصغيرة، لكن لا يعلم أنها الآن تعلم كل ما يخفيه، وهي التي تخفي عنه أمورا كثيرة، إلى متى ستدوم هذه الفجوة بين الأب وابنته؟ إلى متى يتألم عمر بصمت ؟ إلى متى تضحك علياء على بؤس منى وعمر؟

أمر سيء أن تبني قصر سعادته على حساب تعاسة الآخرين ، ألا إن ديننا يأمرنا بأن نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا، إذن لمَ نجد علياء قاسية لهذه الدرجة، لقد بلغ الشر فيها ذروته ،وذاع صيت تجارتها ليبلغ الولايات المجاورة،ألا يكفيها كل ما حققته لحد الآن؟

يقال أن رغبة الطمع لا يستطيع الإنسان قمعها أبدا، لأن الطمع شبح يستولي عليك تدريجيا ثم يتربع عرش عقلك ليصبح الآمر الناهي فيه، ولا يسعك سوى تنفيذ أوامره، للأسف هذا ما تعيشه علياء.

توالت الأيام وتعودت منى على تجرع سموم الألم والأسى كل يوم من يد علياء، مرة بفظاظة كلماتها التي تستطرد السكينة بقلب الصغيرة، لكنها صبرت على كل هذا ولم تشتكي يوما واحدا من هذا الوضع، هذا الأمر أقلق علياء، تريد أن تضعف همتها وتجعلها تغادر البيت وتكره والدها، إنها تنوي طردها مثلما طردت والدتها في السنوات الماضية، أنانية علياء باتت أكبر الآن لكن عدوها هذه المرة صغير لا يقوى على الرد ، ولا يجد سبيلا لنفسه سوى الصبر ، لكن إلى متى يدوم الوضع؟ فقد تنفجر مدامع منى في أية اللحظة، لأنه إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده.

أصبحت الأميرة في هذه الفترة ربة منزل محترفة، فهي لا تكاد تجهل شيئا عن الطبخ وغير ذلك رغم سنها الصغير، وأيضا كانت تهتم بأمور مراد في غياب زوجة أبيها التي سرقتها التجارة من وسط بيتها، لتجعلها تقضي يومها بين المحلات والتجار ، لم تكن تعير اهتماما لأمور أخرى أبدا، فجعلت الثراء هدفا بين ناظريها ولن تستسلم حتى تبلغ هدفها بالتأكيد.

انقضت العطلة واقترب الدخول المدرسي، منى تستعد للعودة إلى المدرسة ربما تستطيع ضبط أنفاسها أخيرا ، وأيضا في هذه السنة سيبدأ دوام مراد بمدرسته الفاخرة التي سجلته علياء بها .

يوم الفاتح من شهر سبتمبر لهذه السنة ، تستيقظ منى باكرا كعادتها، لتتمكن من إنهاء واجباتها المنزلية بالوقت المحدد قبل عودة والدها من العمل، تريد منه مرافقتها لتبتاع أدواتها المدرسية وكتبها لهذه السنة، إنها تنتظره بفارغ الصبر ،متحمسة هي للعودة إلى المدرسة .

ها قد عاد عمر منهك القوى، شاحب اللون، ليجد ابنته تنتظره عند عتبة المنزل ، ترحب بعودته وتقول:

مرحبا أبي ...كيف حالك؟

عمر : أهلا بنيتي ..إنني بخير الحمد الله، لكن لماذا تجلسين هنا؟

منى: تعلم أبي اقترب الدخول المدرسي وعلينا اقتناء الأدوات والكتب.

عمر: أعلم ...أعلم..لكن كلفته علياء بأخذه معها غدا .

تستاء منى من رد والدها، كانت تتمنى أن تتسوق برفقته اليوم، لتتمكن من كسر الحاجز الذي بنته علياء بينهما، إنه يكاد لا يكلم ابنته ،لأنه يعود بساعة متأخرة من العمل رفقة علياء ولا يقوى بعد يومه الشاق أن يتحمل مشقة الحوار بينه وبين منى، الشريرة هي من خطط لكل هذا ، إنها تهدد حبل علاقة عمر ومنى وقد تقطعه في أية لحظة.

انقضى اليوم...وبقيت منى بفراشها تنتظر عودة علياء لتسألها عن مشوار الغد إلى السوق، لكن كانت حيل علياء أقوى من حلم الصغيرة، فسمها لا دواء يداويه، و وجرحها لا بلسم يشفيه، وعمر من هذا لا أحد يحميه، إذن منى الآن بين أمرين :إما تشكي لوالدها عن علياء، أو تستسلم للوضع هذا بكل صمت ،لكن وسط هذا هي لا تعلم أنها لا تملك حرية الاختيار بين هذين الأمرين لأن أمرها حسم بالنسبة لزوجة أبيها، التي قررت فصلها عن المدرسة.

صباح اليوم الموالي..كما جرت العادة دائما ، تحضر منى سفرة فطور الصباح وتساعد علياء في أعمال البيت، وبعد الانتهاء تلاحظ منى استعداد علياء للخروج رفقة مراد، توقفها فتقول:أمي...أريد الذهاب معك إلى السوق لأن أبي وعرني بذلك، لشراء أدوات المدرسة.

تجيب عليا ببرودة أعصاب على طلب الصغيرة: لا أستطيع أخذك معي، لأنك ستتوقفين عن الدراسة، ولا أريد جدالا بالموضوع، أكملي أعمالك ثم أخرجي القطيع.

القرارات حسمت، طبعت فنفذت، والأحلام حطمت، والبريئة أعدمت، وكلمات الحق شنقت، وزوجة الأب انتصرت، هنا انتهى الأمر بمنى، وضعت لأحلامها نهاية قبل بدايتها، شنقت

وليدها قبل مولده، وقطعت أملها قبل ظهوره، تستسلم الصغيرة لقرارات والدتها دون أن تفكر بحل ،لأنها كانت تجد أن علياء قوية دائما وستجد كذبة بديلة تنصب بها على قلب عمر.

حجبت بصره، استوطنت قلبه، وأعمت بصيرته، فسلم مسؤولية رعاية طفلته لها دون أن يفكر في العواقب ،أولا و أخرا هي ليست والدتها البيولوجية ، والآن لا يستطيع اعتراض قراراتها، حتى وإن كانت خاطئة، أضحت منى ضحية رغبات والدها وقراراته الخاطئة، وهي الآن تدفع ثمن ذلك.

ما ذنبها إن كانت ابنته؟ ما ذنبها إن ولدت من أم غير علياء؟

انقاد عمر لرغباته أولا..واليوم ينقاد من جديد لرغبات علياء، وافقها قرار فصل ابنته من المدرسة دون أن يحتج لذلك، أو يحاول بالأمر فقط، قد بررت له ذلك بأنها تريد تعليمها الخياطة لتبرع فيها، وتجعلها شريكة بالعمل ،ربما هذا ما حجب الحقيقة عن عمر، بالأول والأخير ستعود إلى القرية إذن سأتركها تتعلم الحرفة أحسن، للأسف لم يكن ما أخفته زوجته وراء حجاب حبها الزائف هذا.

استهل مراد دراسته بمدرسته الفاخرة، التي كانت تتوفر على شروط التقدم والتكنولوجيا، عكس مدرسة منى التي كانت بسيطة في طرق التعليم والمناهج والوسائل المستعملة،بينما كان

مراد يتلقى دروسه بوسائل عصرية حديثة من شأنها دمج الرفاهية والتسلية والتعليم معا، علياء تريد مستقبلا زاهرا لابنها، ولم تكن تريد أن تنافسه منى هذا النجاح، هذا أول أسباب فصلها، أما الثاني فإنه كان لأجل أعمال البيت، تخيل معي فقط، علياء بين عملها الشاق في المحلات وبين عملها الممل بالبيت، إنه أمر مرهق وشاق جدا ربما يكلف صحة عليا ثمنا ذلك ، لذا بعد قد ملاحظتها احتراف منى في أعمال المنزل ، فكرت في طريقة لاستغلال هذا لصالحها، ربما هذا ما منعها من طردها خارج البيت، أعتبر منى محظوظة قليلا لأنها أمنت لنفسها البقاء داخل البيت باستعمالها سلاح قوي ، دون أن تشعر بذلك، لأنها لم تتخيل أن تصل درجة دناءة علياء إلى طردها خارجا فهي شرف زوجها عمر، لمً قد تفكر في ذلك؟

يبتسم الحظ لعلياء وتحقق نجاحا باهرا في عملها، وأيضا مراد تفوق بمدرسته ، ها قد مرت ثلاث سنوات من التحاقه بالمدرسة، كان مدللا، متعجرفا، يتمرد على قرارات أمه ويرفضها بشدة ، لا يطيعها بأي أمر من الأمور، إنه صغير بالسن لكن يصعب على علياء السيطرة عليه، يا إلهي....نسيت هذا، من صفات اسم مراد عصبيته الثائرة وتمرده على قرارات الآخرين، مرت السنوات الثلاث كأنها دقائق معدودة وكبرت منى،

فأصبحت شابة ساحرة فاتنة، فاق جمالها جمال زوجة أبيها، كانت تسرح ضفائرها الذهبية تحت أشعة الشمس لتأخذ بريقا من بريقها، إنها لؤلؤة فعلا...يا إلهي...كيف أصف لك منى؟ إنك قد رأيتها الليلة الماضية ، وقلت أنها جعلتك تنغمس ببحر الحيرة ، وتهت بجمالها الذي نافس جمال القمر في سماءه، والحورية في البحر وماءه، كانت وردة من الحدائق، أبدع فيها الخالق، لتجعل الناظر لها عاشق، ابنة العشرين من العقود هي منى، التي لا منى غيرها فعلا، فمن لم يكن له منى مثل منى لا اعتبار لحياته، لكن للأسف جمالها لم يكن نعمة لها بل نقمة عليها.

لماذا تقول هذا يا جدي؟ إن منى قطعة من القمر.

أعلم ذلك يا بني لكن هذا ما سيزيد حقد علياء وكرهها أكثر لتدبر مكائد جديدة وطعما جديدا لتصطاد به براءة منى وتسحقها هذه المرة، لا أعلم ما الذي ينتظرها؟ وهذا سبب قلقي عليها، لأنني شاهد عيان على حياتها و ما عانته من مر زوج أبيها.

هكذا عاشت منى سنوات حياتها بعد غياب أمها زينب ، والآن نضجت بما فيه الكفاية إنها تفكر بروية وهدوء في حل من مشاكلها هذه، لتضح حدا لعلياء ،إنها قطعت وعدا لأمها لأن تنتقم من علياء، أو على الأقل تنقذ نفسها ووالدها من شر هذه

الشريرة البائسة التي نظرت إلى حياة عائلة منى نظرة عين حسود كيف ستحقق منى ذلك ؟ لا أعلم، لكنني أشعر بالحماس والتفاؤل لأنها نضجت بما يكفيها لاتخاذ قراراتها، ولم يعد لعلياء يدا عليها .

ربما إنك تتساءل أين هو عمر في هذا الوقت؟

نعم يا جدي كنت أفكر في ذلك فعلا.

لا تقلق إنه لازال على قيد الحياة، لقد شاخ من حيل علياء، وشاب شعره، ووهن جسمه، وضعفت همته، وهو الآن يلزم الفراش بسبب مرض القلب الذي أعياه وأفقده طعم الحياة، ومنى محاصرة بين أعمالها المنزلية ورعاية والدها ، ورعيها القطيع، لكن لا خوف عليها ،لأنها تتمتع بشجاعة تفتقد إليها علياء نفسها، انقسم أهل البيت إلى فوجين ، فوج عمر ومنى، والآخر لعلياء ومراد، يعيشون ببيت واحد لكن عالمهم مختلف تماما، لا يجمع بينهم الآن إلا ظلام الليل.

لكن يا جدي أثار انتباهي أمر محير.

ما هو هذا الأمر يا بني؟

أنت تقول أن عمر له دخلا فرديا كبيرا ، وربما الآن هو مصنف ضمن أثرياء القرية، لكن رغم هذا وجدت منى ترتدي ثيابا بالية ، رثة باهتة اللون ،كأنها لا تملك قوت يومها.

يا بني علياء لا تسمح لها بارتداء الملابس الجميلة ،حتى لا تسرق منها الأنظار، إنها لم تشتر لها قطعة قماش حتى منذ مدة طويلة، وعمر لا يقوى ليتنقل إلى المدينة ليشتري لها ملابس جديدة، منى تعودت على البساطة فهي الآن تصب اهتمامها على صحة والدها فقط، إنه كنزها وما لها وميراثها.

آه...لقد نسيت أن أسلط الضوء على جانب مهم من القصة.

ما هو هذا الجانب يا جدي؟

نسيت أمر القرطين اللذين قامت بلبسهما منى لما بلغت العشرين من عمرها.

لكن ما المهم في هذا يا جدي؟

المهم يا بني هو أن عمر اكتشف الحقيقة أخيرا ، لقد اعترفت منى له بذلك، فحينما رآها تلبس القرطين سألها أين وجدتهما؟ فأجابته وجدتهما في صندوق مهمل رميته بعد مغادرة أمي، تعجب عمر من الأمر ، فبددت منى غرابته هذه بغرابة أقوى منها وهي أنها كانت تعلم بشأن هذا السر منذ حين فصلها من المدرسة، وذلك لقراءتها مذكرات زينب.

وحينما سألت منى والدها عن والدتها، تهرب من إجابتها ، فوجدها تلاحقه بنظراته التي حملت التكذيب والأسى، كأنها

تقول له: أظهر ما في جعبتك ، وأطلق سراح الحقيقة لأنني أعلم جزء منها ولا مهرب لك من الإجابة اليوم.

بعد هذه النظرات الحادة ، يقرر عمر الإفصاح عن السر، لكن بكذبة جديدة، ليقول لها والدتك قد توفيت ، وبعد وفاتها لم أستطع الاهتمام بك وحدي، فقررت أن أتزوج علياء لأن والدتك كانت تحبها كثيرا وتطمئن علك معها، ووجدت فيه حنانا وعطفا قد يسد ثغرة من احتياجك العاطفي يا بنيتي، لكن أظن أنني أسأت الاختيار، بينتي لعلني اليوم لا أستطيع التكفير عن الذنوب التي اقترفتها بحقك، ولا أستطيع إعادة الأيام والسنين لأحقق لك أحلامك، ولا أعلم إن كنت سأعيش أطول أم لا، لذا قررت اليوم أن أعطيك شيئا كان من حقك وبقي كذلك،أمر عمر منى أن تناوله صندوقه الخاص الذي كان يخفي فيه الوثائق المهمة، أعطيته إياه، فأخرج منه دفتر التوفير ورمز الحساب البنكي نعم إنه الحساب الذي فتحه يوم مولدها وقرر أن يوفر فيها كل شهر، وقد داوم على ذلك وأخفى الأمر عن علياء لأنه كان يخشى أن تأخذه هو الآخر كما استولت على المحلات، أوصى عمر ابنته أن لا تخبر علياء بهذا الأمر، وأن تصرف هذا المال على حياتها الخاصة في حالة ما حدث له مكروه ما.

إذن يا بني الآن أشعر بالنعاس أريد أن أغفو قليلا.

لا عليك يا جدي لقد فهمت أنك أنهيت القصة ، والآن علي أن أتعرف على منى لأفهم باقي الأمور من حياتها، لكن كيف لي بذلك؟

خالد: لا تقلق يا سيدي..منى صديقتي الآن أستطيع أن أعرفك عليها ببساطة جدا.

ممنون لك خالد لخدمتك هذا.

خالد: خدمة؟ لا بل قل خدمات، وأنت تعلم ما هو المقابل.

حسنا ..حسنا أيها العازف الصغير لأفي بوعدي لك فور إنقاذ حياة منى.

خالد: حسنا إذن، لقد أدل الظلام ستائره الآن، ولا يسعك المغادرة ، بت اليوم معنا وغدا بإذن الله نغادر نحو وجهتنا التالية

.

نعم ..أنت محق يا خالد، علي أخذ قسط من الراحة وغدا نفتح كتاب منى لنكشف معانيه.

الجد: لكن يا بني احرص على محادثة منى في غياب علياء، لأن علياء زاد شرها الآن وعزلت منى عن كل الناس، وهددت أي شخص يحدثها بالعقاب، لهذا أنا أكتفي بمراقبتها من هنا فقط، خوفا عليها.

الفصل الثالث

حان وقت الرحيل

أحيانا نحتاج لسماع قصص الآخرين لنعتبر منها، لكن استماعي لقصة منى فتح أبواب قلبي أمام احتلال الحزن والشفقة، وإن قصري لا حصن له يحميه، لا جند له بالروح تفديه، إذن ها أنا أسقط أسيرا بمملكة حزن منى ، لأفتش عن شعاع السعادة من الثغرات الصغيرة من النوافذ، لعلي أجد منفذا لي ولمنى.

صباح اليوم الموالي، استيقظت بل إنني لم أطبق أجفاني الليل كله، بقيت أجمع شتات الأفكار لأربط بين الأحداث، حتى أتمكن من مقابلة منى وأنا مجند بتفاصيل حياتها لأحمي نفسي من غضبها وثورتها وقلقها، قال الجد عليَّ أن أكلمها خفية عن علياء، يا ترى هل ستسنح لي الفرصة اليوم؟ متحمس لرؤيتها و تشاطر أطراف الحديث ،لعلي أغير تلك الملامح الحائرة بملامح السعادة والفرح، لعلي أفتح له بوابة المستقبل الزاهر، لتتخلص من أغلال الحقد والأنانية التي كبلتها بها علياء.

نسيت ...عليَّ أن أوقظ خالد لمرافقتي إلى منى، إنه بطاقة عبوري إليها.

أهز خالد بقوة من فراشه : استيقظ يا بني إنه الصباح، علينا أن نسرع قبل عودة علياء.

يفزع خالد من مكانه: صباح الخير سيدي....أعتذر لقد تأخرت عن موعد استيقاظي.

لا عليك بني ...أعلم أنك متعب ، لكن لم يبق أمامنا الكثير .

خالد يقطب حاجبيه ويبرز عينيه الجاحظتين ، يضع يديه على خصره ويرد بغضب: سيدي لا زال أمامك الكثير....الوعد...الوعد هل تذكر؟

يا إلهي ...حتى وهو نائم ،لم ينس الوعد هذا، حسنا بني لم أنس ذلك.

حسنا سيدي...سأحضر الفطور ، ثم نغادر.

غريبة فعلا هي الحياة، الآن بهذه القرية أنا أسبح بنهرين بمجدافين مختلفين ، إلى وجهتين مختلفتين، النهر الأول، نهر الحزن والألم الذي كان مجدافي فيه منى، أنا الثاني إنه نهر الأمل والتفاؤل، مجدافه خالد، منى وجهتها الراحة والسكينة والانتقام، أما خالد وجهته النجاح والشهرة،إنه يتغذى موسيقى، ويشرب موسيقى، وينام عليها،متيم بعشقها هو فعلا، لكن حاليا أن أسلط الضوء على منى فقط.

بعد تناول فطور الصباح، وارتشاف القهوة اللذيذة التي أعدها خالد، ها نحن نهم بالنزول عن ذلك الجبل الشاهق الذي أمضيته فيه ليلتين مع الجد ، لم أشعر بمرور الوقت فيها،تقلصت المسافة البعيدة بفعل مزاح خالد ونكته الطريفة التي كادت تفقدني صوابي.

لحظة..ها هي منى تخرج من بيتها ، أظنها ذاهبة لسرح القطيع،إنها فرصتنا لمحدثتها، تتسارع خطانا أكثر كأننا بمضمار السباق كل منا يريد بلوغ النهاية أولا،يشدني خالد من كُم قميصي الأسود ذلك ويقول: سيدي سأقدمك إليها على أنك قريب أبي من المدينة، حتى تطمئن لك، لأن منى لا تكلم الغرباء.

حسنا خالد افعل ما تراه مناسبا.

تتوقف أخيرا منى عن المشي، ترمي ثقل جسمها على صخرة ضخمة، ثم تخرج من حقيبتها القديمة تلك دفترا، أظنه مذكرات، أو ربما كتاب تنوي قراءته، حسنا سنكتشف ذلك حينما نقترب منها أكثر.

يلقي خالد التحية على منى: السلام عليك صديقتي، كيف حالك.

تلتفت إليه منى: وعليك السلام خالد، أهلا بك، أنت تعلم أنني دائما بين المد والجزر، فلا تشغل نفسك بأموري، وأخبرني أين اختفيت كل هذه المدة؟

خالد: أعتذر صديقتي...تعلمين إنها مشاغل الحياة.

يا عجبا ..إجابة خالد هذه تجعلني أشك أنه يبلغ من العمر ما يفوق الأربعين...خالد الشيخ الحكيم.

يلاحظ خالد ابتسامتي، فيضربني بقوة، يا إلهي لا تخفى عليه خافية، ها هي منى تلاحظ وجودي أخيرا تطيل نظراته الحادة التفتيشية لتبدأ من أعلى رأسي إلى إصبع قدمي، إنها تشعرني بالتوتر ،أتساءل إن كانت نظرات منى هكذا، كيف ستكون نظرات علياء؟

منى: من هذا يا خالد؟

خالد: إنه قريب أبي جاء لزيارة جدي من المدينة.

منى: هكذا إذن..رأيته منذ مدة وهو يتجول بين السهول ليكشف جمال الطبيعة بالبادية أمام عدسة آلة التصوير، لكن ظننه زائرا فقط.

خالد: نعم ...نعم إنه مصور مشهور بالمدينة.

جلسنا لساعات طويلة معي منى، ولم يترأس هذه الجلسة غير خالد، مرة يمزح بنكته اللطيفة، ومرة يغني لنا ليحضر سمعنا بعد ارتشاف سم أغانيه،أعتذر ...لن أكرر ذلك، لكن غناء خالد يجعلني أضجر فعلا لأنه لا يجيد الغناء كما يجيد العزف، لكن منى كانت تجد سعادة كبيرة تضاعف مللي مرات ومرات، فعلا خالد بلسم للجروح الدامية ، وشفاء الروح العليلة، وماسح الدموع الحانية، بفارغ الصبر أنتظر منى لتتربع منصة الخطاب بجلستنا التي أوشكت على أن تنتهي، لكن لا جدوى من ذلك، إنها فتاة

هادئة، فقدت اللذة بالكلام والتعبير، ولا سلطة لها على انتقاء الألفاظ وتركيب الحروف، أريد أن أسألها عن الدفتر الذي بيدها لكنني متردد لذلك، خوفا من ردة فعلها، بينما انشغلت بالتحديق بها خطف خالد الأفكار من مخيلتي وها هو يصوغ الكلمات بكل جرأة وشجاعة، ليسأل منى:

خالد: ما هذا الدفتر يا منى؟

منى: إنها مذكرات والدتي وهي آخر ذكرى لي منها، لهذا أحملها معي دائما لأشعر بوجود أمي، فهذا يشعرني بالقليل من السكينة والهدوء.

خالد: أرى قلبك مغلول مصفود، والألم فيه بلا حدود، سئمت الحياة والوجود، وأنت لا زلت زهرة بين الورود، لماذا تأسرين روحك الطيبة البريئة وراء قضبان اليأس هكذا؟

منى: أتظنني أنا من فعل هذا بنفسي؟ أتظنني سعيدة بذلك؟ يا خالد لازلت صغيرا لتفهم آلامي .

خالد: أريد أن أسمع كلماتك، اصرخي، وثوري ،لكن لا تستسلمي.

أجلس صامتا هادئا بينهما، أنصت باهتمام لحديثهما دون أن أقاطع ذلك، منى تشعر بالراحة مع هذا الصغير، وقد فتحت له كتابها بعد سؤال واحد فقط، وهذا ما كنت أسعى إليه ، لا يهم كيف

حصل ذلك المهم هو أن منى أخيرا تتحدث دون توقف، لتكشف السر أخيرا.

منى: صاحبتني الآلام طول هذه السنوات، وكنت أعيش للغير فقط، أنفذ قرارات الآخرين، لأكون ظلا لهم مرة، ومرة أخرى رجلا آليا لا وجود لكلمة لا بقاموسه، قد برمج أساسا للموافقة فقط، أختنق مرات عديدة باليوم الواحد، وأموت آلاف المرات باليوم ذاته، مرة طعنة خنجر، وأخرى سم قاتل، وأخرى تعويذة تفقدني سيطرة عقلي، ليسطر علي الآخرين.

خالد ،لم أجرب يوما أن أعيش لنفسي، وأن أقرر ما أريد، حتى ملابسي تختار لي، ولا يد لي بالاعتراض على ذلك، لكن بعد اليوم سيغير كل هذا بإذن الله.

خالد: اليوم..؟ يتغير كل هذا؟ ماذا تقصدين؟

منى: سأقول لكما سرا لم أبح به لأحد غيركما.

خالد: تعلمين أنني بئر أسرارك، تحدثي منى.

أحيانا نعيش حالات نفسية قاسية، نريد التعبير عنها لكن تخوننا الحروف، وتخاصمنا الكلمات، وهذا الأمر ليس لشيء سوى أنها لم تجد لا الوقت ولا الشخص مناسب لتخط عليه هذه الأسرار، لكن حينما نقابل شخصا ما ، وإن كان غريبا عنا لكنه يتمتع بالبراءة والطيبة فإننا نقرر الإفصاح عما يختلج صدورنا دون تردد

في ذلك، هذا ما حدث مع منى ، شعرت أنها بحاجة لمشاركة أسرارها مع شخص وضعت به ثقتها، ولم يكن هذا الشخص غير خالد الصغير، لقد قلت لكم سابقا خالد شخصيته قوية رغم صغر سنه، فإنه يتمتع بالذكاء، واللياقة واللباقة في المعاملة ، وهذا ما جعل منى تختاره ليكون مهبط أسرارها أخيرا، تريد أن تعيش دون أن تحمل عبء السر ، تريد أن تتحرر من علياء بمسك يد شخص ما جعلها ترى شعاع السعادة وسط ظلام الأحزان، جعلها تستبدل وسادتها بوسادة الأمل والتفاؤل لترسم غدا جديدا، تتراقص فيه الأفراح على نغمات قلبها الذي خرج للنور مؤخرا، لكن يا ترى من يكون هذا الشخص؟ أظن هذا هو السر الذي ستبوح به منى لخالد.

منى: أنت تعلم يا خالد أنه لا صديق لي هنا غيرك، وتعلم علم اليقين أيضا أين أمضي معظم وقتي، خاصة حينما أشعر برغبة في اعتزال الوجود.

خالد: أعلم منى، ادخلي بالموضوع ، قبل أن يقتلني الفضول.

منى: قبل عدة أيام من اليوم، كنت أجلس وحيدة على ضفة الوادي كعادتي، أراقب حركة العصافير وأستمتع بتغريدها ، أجول صفحات أفكاري، وأنا أمسك بذكرياتي البسيطة، إن طال بي الاعتزال فهذا لأنني أريد التعرف على الشبح الذي لازال

يطارد أحلامي، لكن هذه المرة اختلف الأمر، لأنه يظهر كأنه يريد أن يوضح لي أمرا ما، مرات يرسم لي طريقا ملتويا ويأمرني بالمضي قدما نحوه، ومرة يأمرني بفتح يديً ليضع لي صرة لا أدري ما تحتويه.

لا أعلم إن كان فضولا، أو هو هوس للحقيقة، أم أنه خوف منها، لكن ما أعلمه هو أن هذا الشخص الذي ظهر لي كالملاك وسط مستعمرة الشياطين، سيساعدني للخلاص ،لهذا قررت أن أقابله اليوم كما طلب مني تماما، فإنه حدد موعد لقاءنا عند العصر بالمكان نفسه، وعدته أن لا أخبر أحدا، لكني خلفت وعدي، وها أنا أبوح لك بذلك، لأنني أريدك أن تطمئن أبي إن طال غيابي.

صباح يوم من الأيام التي مضت من عمري وانقضت، خرجت كعادتي من البيت بعد أن أنهيت أعمالي ، أتوجه للوادي لأنعم بقليل من الراحة و الطمأنينة ، فيشد انتباهي شخص غريب يتبع خطواتي بشكل دقيق، وبكل اهتمام ، لم أحدثه هذا اليوم حتى لا أكون غريبة الأطوار وأشك في كل من حولي دون سبب لذلك، بعدها أعود للبيت ، يعود أيضا بالطريق ليصل به المنتهى إلى بيتي، بقي هذا الشاب فترة طويلة وهو تحت نافذة غرفتي، لكن استغربت من مغادرته فجأة، يا ترى أكانت صدفة،

أم أنه خطط لذلك، ومن يكون هذا الشاب؟ الذي غادر عتبة بيتي حين قارب موعد عودة علياء من العمل التي كما تعلم كانت ترفض أن ألتقي بشخص ما أو أحدث شخصا ما، إنها تريد أن تكبلني بأصفاد الوحدة، تريد دفعي للجنون أو الهروب من البيت، لكن ما كان بيدي حيلة غير الرضوخ لأوارها ، لأن لا أمل لي غير ذلك، فإنني أخشى على نفسي الذئاب البشرية التي قد تستغل براءتي وطيبتي، وأيضا أخاف على صحة والدي، لهذا أحافظ على هدوئي ولا أجادلها ولا أعارض قراراتها، عكس مراد الذي كان لا يسمع صوتا غير صوت رغباته ولا ينفذ غير قراراته، لقد دللته بشكل مبالغ فيه، مما جعله يتمرد عليها، لكن أخي يعاملني بلطف شديد ،بالأخير إنه رابط الدم ولا مجال لننكر ذلك، لكن علياء كانت تبعده دائما عني، وهذا ما زاد ألمي وحزني ، لكن اليوم لأول مرة أشعر أنه حان وقت الرحيل فعلا، ولن أتردد عن ذلك.

تداهم عقلي أسئلة غريبة حول الشاب الذي لازال يراقبني لأيام أخرى متواصلة ، والعجيب بالأمر وجوده بالصباح الباكر أما البيت، إنه غريب عن القرية ووجهه غير مألوف بالنسبة لي، كما أنه لم يتردد على نزلك بل كان يبيت بخيمة صغيرة ينصبها ليلا بأعلى الجبل، أينما كان يبدو له منزلي بوضوح، خمسة أيام ظل

الأمر على حاله، أنوي التحدث إليه لأسأله من يكون ، لكن يتلعثم لساني وتتناثر حروفي هنا وهناك لتكشف له عن حيرتي من أمرك ، لكن لم يقف مكتوف اليدين في هذا اليوم ، بل عزم على مشاركتي وحدتي وها هو يجلس بقربي دون إذن ولا دعوة .

أعلم أنك تفكرين كثيرا، وإنك محتارة حول شخصيتي، تريدين كشف هويتي لتعرفي من أكون.

ببساطة هكذا يكشف عن أفكاري...يا إلهي إنه ذكي جدا، أرد عليه بإيماءة تدل على موافقتي كلامه.

أولا أنا اسمي علي أبلغ من العمر سبعة عشر سنة وثلاثة أشهر بالضبط ، أعيش مع والدتي بالمدينة وأزاول دراستي بالثانوية ، ووالدي توفي منذ أربع سنوات.

لكن ما الذي أتى بك إلى القرية؟

جئت هنا لأنجز بحثا حلول الحياة بالريف ومقارنتها بالمدينة، وبينما أنا منشغل ببحثي هذا لاحظتك تخاطبين الوادي ذلك اليوم، وأنت تحطين رحال دموعك على خديك الناعمين ، فراودني فضول لأتعرف عليك عن قرب ربما تكونين مثالا حيا يدعم بحثي، هذا ما ظننته ببادئ الأمر، لكن في اليوم الموالي حينما شاهدت تلك المرأة القاسية التي تبدو عليها ملامح الشر

من خلال شراراتها المتطايرة في وجهك شعرت حينما أنك تحتاجين مساعدة ، لذا قررت مراقبتك لأتقرب إليك أكثر.

لا أعلم لمً أشعر بالراحة لحديثك، رغم أنني لا أعرفك؟

الأمر بسيط ، لأنني بريء وأحمل نوايا صافية اتجاهك، ربما قد بعثني المولى، أو شخصا ما لأنقذك.

بعثك شخصا ما؟ من تقصد بكلامك؟

لا لا أقصد شيئا ،إنها مجرد ثرثرة وشكوك فقط، حسنا ألن تخبريني من تكون تلك المرأة؟

بطرفة عين تمكن من احتلال فؤادي ليتربع على عرشه، وها هو الآن يمد بيده وجنده ليحتل العقل هو الآخر، أشعر كأنني بلا وعي...أرد على أسئلته بشكل فوري وصادق، دون أن أعترض لذلك، أول مرة يحدث هذا ،أكلم شخصا غريبا وأبوح له بأدق تفاصيل حياتي ...ليس هذا فقط، وإنما إنني أخبرته عما كنت أخفيه عن والدي، وأخبرته علمي بكذباته التي كانت يحتال عليً بها ليحميها من صدمات الحقيقة، إنه فضل أن أعيش مع أوهام الكذب، أحسن من أن أُصدم بواقع لن أتحمله، بعدها أجيبه:

المرأة هذه هي أمي.

أمك؟ هذا مستحيل ..كلماتها الفظة تقول غير ذلك.

حسنا..حسنا لن أتلاعب بالحقيقة، إنها زوجة أبي علياء، ليومنا هذا لا تعرف أنني أعلم حقيقتها.

بعدها طال الحوار كثيرا ،و ها هو الليل يسدل ستائره ليجعلنا نفترق بأمل لقاء آخر، قد غادر كل منا إلى وجهته بحالة غير الحالة الابتدائية، فأنا غادرت الوادي محملة بالقليل من الأمل والفرح فأخيرا نفست عن كربتي وخففت بعضا من حمل أسراري، أما ذلك الغريب فقد غادر محملا ببعض تفاصيل حياتي وآلامي وأحزاني، لا أدري ما ينوي فعله بها؟ لكن كل ما أعلمه أنني أتحرق شوقا للقاء التالي .

أصل إلى البيت متأخرة، وها هي تعلي الصراخ لتسألني أين كنت؟ وقفت أمامها لم أبد حراكا أبدا ولم أتفوه بحرف واحد ، ولا أثر للدمع بعيني كعادته، يا إلهي ...ما الذي حدث معي؟

بعد طول تجاهل تترك يدي وتأمرني بتناول العشاء ثم الذهاب إلى النوم، ها أنا أنفذ الأوامر كعادتي وأنا شاردة الذهن بذلك الشاب، أتساءل أين سينتهي بنا الحوار؟ وماذا سيحدث حينها؟ أ سيغادر وأعود لوحدتي مجددا؟ أم أنه فعلا كما قال ، قد أرسله أحدهم لإنقاذي، ولن يتركني قبل الوفاء بوعده وأداء عمله على أكمل وجه، لا أدري ؟أنتظر بزوغ الفجر على أحر من الجمر

واليوم استبدلت أنين الألم بنغمات الأمل التي زرعها في قلبي هذا الغريب.

الغريب لا يؤذينا دائما ، كما يظن البعض، بل قد يعالج البعض من جروحها إن كنا صادقين معه.

أفلق الصبح أخيرا ، بعد طول انتظار لم أنم ليلة البارحة لأنني انشغلت بالتفكير والبحث عن الأجوبة، وصلت أخيرا لجواب محتمل، قلت ربما يكون هذا هو الشبح الذي يطارد أحلامي وقد ظهر بهيئة إنسان حينما وجد أن الوقت مناسب للكشف عن هويته، لكن هذا الجواب خيالي نوعا ما ولا يصدقه عقل ولا يقبله منطق، قد ركبت جوابا سطحيا وفق مشاعري وأحاسيسي فقط، لا يهم ما يقي إلا ساعات قليلة وتغادر علياء للمنزل، بعدها يمكنني لقاء الغريب مجددا ولعله اليوم يجيب عن أسئلتي.

غادرت علياء إلى عملها كالعادة، وها أنا أجول البيت بسرعة كبيرة حتى لا أتأخر عن موعدي خشية رحيله مبكرا، بعد انتهاء أحاول البحث عن ملابس لائقة حتى لا أبدو متشردة أمامه، لكن للأسف لم يسعفني الحظ ، ملابسي كلها أصبحت مجرد خردة بالية ، وعلياء قد أحكمت إغلاق خزانتها وأخذت المفتاح معها كالعادة، وأبي غادر باكرا لموعد فحصه، لا خيار لدي سوى

أن أذهب كما أنا ، لا داعي لأن أحجب الواقع المرير هذا لأنه واضح لكل الناس، ولا باس إن اتضح أمامه أيضا.

خرجت من البيت لم أبتعد كثيرا، تذكرت المذكرات لقد نسيتها بالبيت ، عدت بخطى سريعة كالبرق ها قد وجدتها فوق طاولتي الخشبية التي شاخت وقاربت على الموت ، وضعنها بحقيبتي ولم أنس وضع القرطين أيضا، وها أنا أهم بالمغادرة نحو الوادي.

وصلت إلى ضفة الوادي ، تفقدته من كل جهاته لعلي أجده وصل قبلي، لكن لم أجده شعرت بخيبة تتسلل إليَّ ليخاطبني صوت بداخلي: لن يأت ، ستنتظرين دون جدوى.

بينما هناك أخر: يقول لا عليك منى انتظري قليلا لعله من يفق باكرا من غفوته.

بين هذا وذاك قررت أن أجلس برهة من الزمن ، أتسلى بكتابة سطور من ذكرياتي لحين وصوله ، وإن تأخر أكثر سأغادر.....كتبت القليل من شتات الذكريات ودونت المهم منها على دفتري، وما إن أوشك على أن أغلق دفتري وأهم بالرحيل، حتى يتسلل سمعي صوت من بعيد: رويدك...رويدك منى أنا هنا نعم أخيرا قد وصل الغريب لكن متأخرا جدا.

ها قد وصل إليُ وقد خفًت لهثاته وجفًت دموعه، أخرج قليلا من الماء لأسقيه ربما يخفف عطشه، شرب بسرعة ، هو أخذ شهيقا طويلا، وقال: أعتذر منى تأخرت عن الموعد، لأنني لم أُعَيرَ المنبه كعادتي.

أخفف من حدة تعبه وأقول: لا عليك أن تصل متأخرا خير من لا تصل أبدا.

يسألني عن ليلة البارحة، ما وجدت جوابا لسؤاله، لا يعلم أنني لم أطبق الجفن طول الليل ، لم أشأ إخباره بالأمر ،لأنني أريد أن أسمعه فقط وهو يجيب عن أسئلتي، يبقى صامتا لفترة طويلة وهو يتأملني، ثم ينتبه للقرطين فيجاملني بجمالهما، يسأل عن مصدرهما، أخبره بأنهما ذكرى من والدتي.

علي: هل لك أن تحدثيني أكثر عن والدتك؟

حسبك..أيها الغريب، فلا أعرف عن والدتي إلا ما قرأته من مذكراتها فقط، إنها شخص طيب ومحبوب وجمالها يضاهي جميل البدور، تزوجت والدي عن حب وأتت إلى القرية، بعد مدة طويلة من الزواج كنت أول مولود وآخره لها ، لكن للأسف لست أتذكر من ملامحها غير التي رأيتها في الصور لأنها توفيت لما بلغت من العمر سنتين.

علي: من أخبرك بوفاتها؟

سألت والدي قبل أيام قليلة فقط ، وهو أخبرني بذلك.

علي: حسنا ، الآن فهمت ، هذا ما جعل والدك يتزوج مرة ثانية.

نعم تزوج أبي بعد وفاة والدتي ، حتى ترعاني زوجته لأنها كانت أقرب صديقات والدتي، لكن للأسف لم يكن كذلك، لأنها كانت لا تحب إلا نفسها ولا هدف لها غير الثراء، الآن قد استولت على أموال والدي ورمت به بالفراش لا تعيره اهتماما أبدا، ولم أسلم أنا بشرها أيضا إنها تلاحق هفواتي لتتمكن من طردي خارج المنزل، حتى تستولي عليه هو الآخر، لا تحب أن يكون له شريك في أي شيء.

بعد حديثنا عن والدتي وزوجة أبي، لاحظت غرابة على وجه الشاب، كأنه لم يصدق أمرا ما، الحتف عقلي بلحاف من الحيرة والتساؤل، لمَ هذه النظرات الغريبة؟ وما الأمر الذي لم يصدقه؟

اليوم لقاءنا الثاني اتضحت الصور أمامي ، وها هو يعرض عليً مرافقته إلى المدينة ، وقال أن والدته ستعتني بأموري ، وسأتمكن من تعلم حرفة ما لأتخلص من قيود العبودية عند علياء، لم يَطل تفكيري بالعرض ، لأنني قد عزمت سابقا على الرحيل، وها قد حان الوقت المناسب وهذا العرض هو فرصتي عليً أن أحسن استغلالها.

حسنا...سأرحل معك.

علي: إذن عليك ملاقاتي بعد يومين بالمكان نفسه والوقت نفسه.

لمً لا نرحل اليوم؟

منى لا تسبقي الأحداث، عليً الرحيل إلى المدينة اليوم لأخبر والدتي بأن تتدبر أمورك ، وبعد يومين سأعود لاصطحابك لا تقلقي إنه وعد مني.

حسنا...سأنتظرك.

لعل كل فرد منا حينما يقابل شخصا غريبا يسأل عن هويته ليتعرف عليه من جهة ،ويتمكن كشف العلاقة بينه وبين هذا الغريب،من جهة أخرى، علي لم يكن غريبا كما كانت تظن منى إنه أقرب منها بكثير.

حينما نعود بشريط ذاكرتنا قبل ثمانية عشرة سنة من اليوم، يوم مغادرة زينب البيت، هناك أمر كانت تفكر به كثيرا، كان يجعلها سعيدة وأصرت على اجتماعها بصديقتها وزوجها عمر على طاولة العشاء تلك الليلة لأنها كانت تحمل أنباء سارة لكليهما، لكن لم يسعفها الحظ للحديث وسابقتها علياء بصفعتها القاضية التي رمت بها خارج البيت، زينب أرادت الحفاظ على ما تبقى من كرامتها، فلم تشأ اعتراض هذا القدر ، وغادرت بيتها إلى وجهة مجهولة.

مرت المدة المحددة وها قد حان يوم لقاء منى بعلي ، و لحسن حظنا لحقنا بها قبل مغادرتها، فإنها قد كشفت لنا عن أسرار مهمة جدا، لا يمكن لنا معرفتها من غيرها ، ها هي منى تحدث خالد.

منى: اعذري أيها الصغير...حان وقت مغادرتي.

خالد تدمع عيناه: حسنا إن كنت مقتنعة بذلك لن أمنعك.

منى: اعتن بأبي ...وقمت بزيارته من فترة لأخرى.

خالد: حسنا سأفعل ذلك ، لا تقلقي، بلغيني أخبارك ما إن تستقر أوضاعك.

منى: حينما أتمكن من الوقوف على قدميً من جديد، سأعود إلى هنا لأزورك وأصطحب أبي معي.

لا يشعر الأب بالجفاء والغربة إلا حينما تغادر ابنته البيت، هذا ما كنت أسمعه مرارا وتكرارا حينما تخرج العروس من بيت والدها، لكن أية وحشة وغربة ، وحزن سينبت بقلب عمر مكان ابنته الحبيبة منى، التي لم يتوقع فراقها أبدا، فإنها مناه المنتظر ؟

نودع منى بدموع حارة تأبى التوقف، تغادرنا إلى بيتها ووهي تحدق بخالد وتلوح له من بعيد، غادرت منى وتركت قلبها وروحها معلقان مع خالد ووالدها، يا ترى من سيهتم بوالدها بغيابها؟ يا ترى هل ستهتم علياء به حينما تغيب؟ أم أنه سيموت موتا بطيئا بطعنات التجاهل والذل من علياء؟

وضبت منى حاجباتها الضرورية، بل أنها جمعت شتات من بقي لها بذلك البيت ، ثم وضعتها بكيس بلاستيكي، وها هي تهم بالرحيل بعد أن نام والدها، تتسارع نبضات قلبها لهفة لمعرفة ما ينتظرها يا ترى كيف ستعيش حياتها الجديدة بالمدينة ومع من ؟ ثم وسط هذا الأمل والفرحة والتفاؤل ها هو الخوف يشن هجوما قاسيا عليها ، ليجعها تبحر بشكوكها مرة ثانية ، من يكون هذا الغريب؟ ولمَ يصر على مساعدتي؟

هل سيأتي إلى الموعد؟ أم سيتأخر كعادته؟

لا لا يجب عليَّ أن أفكر بايجابية أكثر حتى أتمكن من التأقلم مع الوضع الجديد، ولن أتراجع عن قراري في أي حال من الأحوال.

وصلت منى بالوقت المحدد إلى ضفة الوادي وها هي تنتظر وصول علي ، تمر ساعات وساعات طويلة تحدث منى نفسها: لقد تأخر كعادتك، إنه غير منضبط بمواعيده، ربما لم يستيقظ باكرا، ربما وجب ازدحام سير بالمدينة أخره في الوصول......، إلى غير ذلك من الحجج التي كانت تفكر بها منى حتى تتمكن من السيطرة على خوفها وقلقها ، طال بها الانتظار والليل سيخيم قريبا ، كيف ستعود إلى البيت ؟ وأين ستقضي ليلتها هذه؟

أقبلت رسل الليل تتوافد تبليغا بموعده، تأبى منى العودة إلى البيت قد قررت قضاء الليلة بالوادي ثم ستجد حلا عند طلوع الصباح، ليل حالك، برودته قاسية، وسماءه غائمة ، ها هي الفتاة وحيدة تسمع أصوات الذئاب من جهة ، وأصوات عصافير بطنها من جهة أخرى، أضعف قوتها الجوع الشديد، والبرد، فملابسها البالية الرثة تلك التي تكاد لا تغطي جسمها بالكامل ، لا تقوى على حمايتها من برد الليل ،تبحث عن مكان دافئ لتجلس تحت شجرة شاهقة ، تضم رجليها إلى صدرها وتوسد كيسها الأسود ذاك، لعلها تنام برهة وتنسى آلام الجوع والعطش والبرد، إنها معاناة أشد من معاناتها مع علياء، لكن بدايات النهايات غالبا ما تكون صعبة .

تجتاز منى هذا الاختبار باحترافية كبيرة تصبر على معاناتها ها هي تقول: كل الدروب لابد من وجود بها أشواك وعواقب تفصلنا عن بلوغ الهدف، لكن الصبر والإرادة القوية رصيد كاف لهذه الرحلة الصعبة ولن أتراجع عنها مهما ساء الوضع.

انقضت تلك الليلة بمعاناتها ، منى تحمل حاجياتها وتنوي الظهور على جانب الطريق لرُبَّ تجد سيارة تقلها إلى المدينة، تصارع ألمها وحزنها وتهم إلى الطريق، وها هي تجلس على حافته وهي تضم مذكرات والدتها إلى قلبها ،لتشعر بوجودها معها،

لعل هذا يضفي القليل من السكينة على قلبها...تمر سيارات وسيارات...ولم تتوقف واحدة منهن لنقل الفتاة ، لا أعلم ما سبب ذلك؟ ربما لأن الفتاة غريبة بطريق غريب؟ أو منظر منى السيئ الذي يوحي على أنها متسولة متشردة .

لم تفقد الأمل وبقيت جالسة بالطريق ساعات طويلة ، تردد كلمات غير مفهومة وتمنع دموعها من السقوط ،إنها تريد أن تظهر قوية حتى تتمكن من بلوغ هدفها ، ولعل ما ستعيشه مستقبلا بعد قرارها هذا لن يكون أسوء مما عاشته مع علياء، فإنها تذوقت الذل والهوان، والخضوع والألم والحاجة والفقر، بكأس واحد يوميا، إذن تريد أن تجرب كأسا آخرا بطعم أخر، وأخيرا ها هي قد توقفت سيارة أمام منى تدعوني للركوب، تحدق بها منى طويلا وهي تنظر إليها نظرة استغراب ...لا لشيء إلا لأن سائق السيارة كانت امرأة، تتساءل منى: كيف لامرأة جميلة مثلها تتجول بطريق غريب بسيارة فاخرة وحدها دون أن تشعر بالخوف، وتتوقف لتقل غريبة عنها أنها رفض الرجال قبلها توصيلها، أمر غريب فعلا لكن هذه الحياة عليٍّ استغلال الفرصة ولن أكلمها طول الطريق.

تركب منى السيارة وقد قررت على أن تكون صماء بكماء حتى تتمكن من حماية نفسها من هذه المرأة تحركت السيارة تشق

أنفاس الطريق المعبد بسرعة كبيرة ، ولم تقل خلالها المرأة حرفا واحدا، غريب لم تسألني من أكون؟ أو أين أنوي الذهاب؟ هل وعدت نفسها هي الأخرى على مصاحبة الصمت؟ لالا ربما قد تكون بكماء؟

عجبا وجدت منى المرأة تفكر مثلها تماما كأنها نسخة عنها ،ما الذي ستفعله الآن يا ترى؟

ليس بالضرورة أن تكون شكوكنا صائبة دائمة وقراراتها صحيحة دائما، لكن علينا أن نتقبل الآخرين على صورتهم الأصلية والحوار أتحسن وسيلة لإزالة الغموض .

ها هي منى الآن تنوي على فتح الحوار مع المرأة لعلها تعرفها من تكون ولمً ساعدتها؟

منى: شكرا لك سيدتي ...على مساعدتي.

السيدة: لا تناديني سيدة، قولي خالتي.

منى تتعجب للأمر : خالتي؟ لكن أنا لا أعرفك؟

السيدة: إنه من باب الاحترام فقط بنيتي ،أنا لا أحبذ غموض العلاقات واستعمال الألقاب .

منى: حسنا...خالتي ، شكرا لك مرة ثانية، أنت ملاك أرسلك المولى لي، لأنك لا تملكين أدنى فكرة كيف أمضيت ليلة البارحة.

السيدة: أمضيت ليلة كاملة خارج البيت؟

منى: نعم ، ليلة كاملة خارج البيت بانتظار من لا يأتي.

السيدة: من المنتظر؟

منى: لا أعلم إنه غريب عني ولا أعرف غير اسمه، الذي أشك أنه مستعار أيضا، بل إنني أشك الآن أنه كان مجرد شخص ولد من ذاكرتي فقط .

السيدة: ربما، أحيانا نتخيل وجود أشخاص لا وجود لهم بالحياة، وذلك لحاجتنا إليهم فقط.

منى: لكن كيف أحتاج شخصا غريبا ؟

السيدة: ليس بالضرورة أن نعرف هذا الشخص، ربما هو شخص غريب لكن قد يكون قد وضح لك بداية الطريق الصحيح، أو أعطاك حلا ما، أو جوابا عن سؤال ما.

منى: الآن فهمت، صدقت ،فعلا هذا الغريب تمكن من زيادة جرعة شجاعتي لأقتحم حياة جديدة بقرار جديد، دون خوف ولا تردد،أتعلمين ارتحت بعد حديثي معك، كنت أظنك بكماء.

تضحك السيدة وترد عليها: لا يا صغيرتي أنا فقط قررت مصاحبة الصمت حينما لاحظت تردد لركوب السيارة فأردتك أن تبادري أولا بالحديث ، بعد أن تطمئني لوجودك معي.

منى: لا أعرف معنى الطمأنينة والسكينة أبدا، وسط هذه الزوابع والعواصف التي تهز كياني من فترة لفترة ، لتجعلني حبيسة الحزن والألم فقط.

السيدة: هل لك تكلميني عن حياتك قيلا ربما أستطيع مساعدتك؟

تحت منى كتاب حياتها من جديد لقارئ جديد، لعل هذا القارئ سيفك شفرة الألغاز ويتمكن من إرشادها إلا الخلاص، أحيانا حينما نثقل بالهموم والأحزان التي لا نقوى على تحملها ولا نستطيع ردها لأنها قضاء من الله عز وجل ، نبحث عن شخص ما يكون محط هذه الهموم لنخفف حملها عن عاتقنا لا يهم إن كان غريبا أو قريبا، المهم أننا نتكلم وفقط ، وهكذا نكرر ونكرر إلى أن نقابل الشخص المناسب وعادة ما يكون شخصا حكيما فاقها فاهما واعيا ، تعلم من دروس الحياة ما يكفيه ليصبح معلمها بإحدى مدارسها، وأخيرا نقرر أن نرتاد هذه المدرسة ونتعلم على يد هذا المعلم لعلنا نجد الخلاص .

دمعت عيون السيدة بعد سماع قصة منى كأنها شعرت بأمر غريب داخلها ، أيعقل أن تكون صدفة؟ أم هناك أمر أخر تخفيه السيدة عن منى؟

تسأل منى عن اسم السيدة : ما اسمك يا خالتي.

الخالة : اسمي هو ما تبحثين عنه يا صغيرتي لتعيشي بحرية وسلام.

منى: إنني أبحث عن شعاع الأمل فقط يا خالتي.

الخالة: إذن عليك مناداتي خالتي أمل، ولا تسألي إن كان اسمي الحقيقي أم لا.

وافقت منى على كلام الخالة أمل ، التي وعدتها بأن تجد حلا مناسبا لحالتها ولن تتركها وحيدة بالمدينة، قد عرضت عليها أن تعيش برفقتها في بيتها مع عائلتها، لا خيار آخر أمام منى حاليا سوى الموافقة .

أذعنت منى لقرارات الخالة وانقادت وراءها دون اعتراض أو سؤال، لأن الخالة قالت أنها ستكشف لها عن حياتها وهويتها في الوقت المناسب دون سؤال، الآن منى عليها أن تنفذ كلام الخالة حرفيا وتنتظر الوقت المبارك ليحل عليها حتى تتعرف على شخص هذه المرأة الغريبة التي سرقت قلب منى في جلسة واحدة ، إنها عكس علياء تماما، إنها بشوشة متواضعة ، تتمتع بحس مرهف ، عطوفة القلب نقية الروح لا مجال للشر داخلها،حقيقة منى تجدها صورة عن والدتها حسب المذكرات، أهذا صحيح كل شخص منا له من يشبهه لهذه الدرجة؟ لم تجد منا شبها بين صورة والدتها وهذه المرأة بل قد وجدت شبها في

طريقة تفكيرهما وأخلاقهما وقيمهما، أيعقل هذا؟ وما هو السر في الأمر؟
تدون منى هذه التساؤلات بدفترها حتى تسأل الخالة عنها حينما تقرر هي ذلك، ها هما يصلان أخيرا إلى المنزل، أي منزل هذا إنه قصر فعلا..إنه ساحر فعلا أسبه بقصور الملوك والأمراء ، تتوه منى في سحر المكان ورونقه الجميل ، وعبق ورده الذي ينتشر من حديقته الأمامية عند مدخل الرئيسي.
تأخذ الخالة منى إلى غرفة الضيوف بالطابق العلوي، وتقول لها إنها غرفتك من الآن وصاعدا وافعلي فيها ما شئت دون حاجة لإذن مني ، ما إن تدخل منى الغرفة حتى تصيبها دهشة كبيرة قد وجدتها غرفة وردية مزينة بلوحات جميلة ، فيها مكتبة صغيرة ، وخزانة وردية أيضا وغير ذلك...باختصار إنها تشبه غرفة منى السابقة قبل التعديلات التي أضافتها علياء عليها، يا إلهي...أيمكن للصدف أن تكون دقيقة بهذا الشكل؟ أولا تشابه القيم والمبادئ، والآن الذوق أيضا ، ما الذي يحدث؟
الخالة: عليك الاستحمام، ريثما أجد لك ملابس نظيفة وأعود.
منى: حسنا خالتي.
تستحم منى لتشعر بالاسترخاء والراحة بعدها، كأنه حلم من أحلامها ،فإنها لم تذق يوما طعم الحنان واللطف والعطف ،

الذي تذوقته اليوم من المرأة الغريبة، أحيانا لا يشعر بآلامنا القريب منا ، لكن هناك شخص ما موجود مقدر له أن يغير حياتنا و يحسن مزاجنا ليجعلنا نتعرف على الحياة من وجهة أخرى غير الوجهة التي ألفناها سابقا، وهذا ما يحدث مع منى حاليا.

وسط كل هذا لم تنس منى أمر علي، لا زالت تفكر بأمره ، يا ترى أين هو ؟ وهل توقعات الخالة صحيحة ، لم يكن علي إلا طيف صنعه خيالي فقط، أيعقل أن يكون لقاءنا وهميا فقط؟

تساؤلات كثيرة أرهقت كاهل منى لتجعلها تغفو على سريرها من شدة التعب ، أمر غريب الخالة تراقبها من بعيد وعيونها دامعة ،أيعقل أنها تشفق عليها؟ أم هناك أمر آخر؟

تستيقظ منى من نومها فتجد الخالة بجانبها تنتظر استيقاظها لتعطيها الملابس الجديدة التي اقتنتها لها من السوق، انبهرت منى بجمال الملابس وراحت تجرب هذا، وذاك بلهفة وسعادة ،كانت تتطاير فرحا هنا وهناك وتقبل جبين الخالة بحب كبير ، لتغدق عليها بالاحترام والتقدير، لا يفعل هذه الأمور إلا من كان يعرف منى عن قرب، يعلم علم اليقين ما عانته ويدرك ما الذي ينقصها وما الذي تريده، ها هي منى أخيرا تلبس لباسا ساحرا

ليضفي النور إلى وجهها البريء ويجعله يشع سعادة وفرحا ، ليظهر جمالها الملائكي الذي لطالما أرادت علياء إخفاءه.
تحضر الخالة ما لذ وطاب من الأكلات وتنادي منى للسفرة، هذه نقطة الالتقاء الثالثة بين شخصية زينب والخالة لكن منى لن تكشف ذلك لأنها لم تتذوق أكل والدتها أبدا.....تأكل منى بشراهة كبيرة لأنها كانت تشعر بجوع شديد، تكتفي الخالة بمراقبتها وهي تبتسم ،قد أسرتها منى بتصرفاته الطفولية هذه، أولا وأخيرا منى لم تعش طفولتها ، لأنها تحملت المسؤولية في سن صغيرة جدا ....تقول الخالة لمنى:
صغيرتي أكملي أكلك ثم أخبريني أمورا أخرى عن حياتك.
منى: حسنا خالتي سأفعل ذلك.
سفرة ملكية لم تقوى منى على تذوق كل أكلاتها لأنها تشعر أن المعدة قد امتلأت أكثر مما يلزمها وهي تخشى أن تمرض بعد ذلك فتقول: خالتي ...احتفظي بالأطباق بالثلاجة سأعود لها حينما أشعر بالجوع.
الخالة: لك ذلك بنتي البيت بيتك وافعلي ما شئت.
منى: حسنا تريدين معرفة أمورا عن حياتي، يكفي أن أقول لك أن حياتي هي مجلدات لا نهاية من سلسلة الأحزان والآلام كاتبها عبقري ذكي أناني لم يبتوقع النهايات السعيدة إلا لنفسه،

وكاتب قصتي يا خالتي هو زوجة أبي التي انتقت الحروف والكلمات وصاغت القرارات ، ونفذت الحيل لترمي بي بالأخير بوحل الحيرة والوحدة والألم، فلا رفيق يسمعني، ولا صديق يفهمني، ولا أم تحميني، ولا قدر يصاحبني إذن ما وجدت مهربا من كل هذا غير الرحيل الذي قررته مؤخرا، وزاد إصراري عليه ذلك الشاب الغريب ،أو ذلك الطيف الذي حاكته أفكاري ، لينته بي الطريق إلى بيتك يا خالتي.

تستوقف الخالة عاصفة أحاسيس منى التي أيقظتها مجددا لتقول لها: ما أجمل هذين القرطين.

منى: جمالهما من جمال والدتي، إنها هديتها الأولى والأخيرة لي،لكن لا أعرف ما الأمر المميز فيهما حتى يجعل كل من يقابلني يهتم لأمرهما.

الخالة تبدد ضباب الشكوك: لا لا فقط جذبني ذلك الجوهر الجميل الذي زينهما.

منى: نعم إنه جميل جدا.

لا تستطيع الخالة منع دموعها ، فتقرر الخروج من غرفة منى فجأة ، هناك ذكريات تختلج صدرها منذ مدة قد أيقظتها حكاية منى، ربما عاشت أمرا مشابها، أو أن طيبة قلبها هي السبب ،

هكذا كانت تفسر منى ردة فعل الخالة حينما تغادر غرفتها كل مرة تقص فيها حكايتها، حتى لا تغرق ببحر الشك من جديد .

مرَّ أسبوع كامل على وجود منى ببيت الخالة ولا نملك فكرة عما سيحدث لاحقا، لكن ما نعرفه الآن استياء حالة عمر جراء مغادرة ابنته منى، حاول جاهدا البحث عنها ،لكن باءت محاولاته بالفشل وكانت علياء تقيده بحجج وتبريرات كثيرة ، ها هو يجلس وحيدا عند عتبة المنزل وهو يضم صورة منى إلى صدره يتساءل عن مكانها وعن حالها، الصغيرة لا تعرف شيئا وليس لها أصدقاء ، كيف ستتدبر أمرها بأرض غريبة مع أشخاص غرباء؟

يتفقد حاجيتها الباقية بالغرفة ويقلب صفحات الذكريات هناك لعله يجد رسالة أو قصاصة تريح فكره المنشغل ، لكنه لم يجد شيئا من هذا القبيل ، قد تنبه لأمر واحد ، منى قد أخذت معها دفتر التوفير الحمد لله هذا المبلغ اليسير سيساعدها لفترة من الزمن، لكن ما الذي سيحدث بعدها ؟

عمر ساءت حالته أكثر وأكثر، فليس هناك كلمة على شفتيه الذابلتين غير اسم منى، ولا أحد بعينيه غير صورتها، وخزات متكررة أشبه فطعنات سيف حاد تهاجم قلبه الخائف القلق، الذي لم يذق النوم منذ غياب منى، فإنه لا منى بحياته غير منى.

أما علياء فكانت مسرورة لهذا الوضع لأنها لم تتكبد عناء ومشقة حيلة جديدة لطرد منى بل أنها فرصة قدمت لها في طبق من ذهب، وبالتأكيد لن تسمح لها بالعودة مجددا.

أحيانا علينا اتخاذ قرارات مصيرية دون مشاركة الغير فيها، فاصنع ذاتك من قرارك لا قرار الآخرين وعش حياتك كما تريد لا كما يريد الآخرين، من السهل جدا إعطاء المواعظ لكن من الصعب أن نلتزم بها، هذه كانت نصيحة عمر لابنته التي يطبقها يوما بحياته خاصة بعد زواجه من علياء .

في الضفة الأخرى نجد منى التي تعلقت بالخالة يوما عن اليوم، إنها تعيش كالملكة ببيتها قد نفذت لها الكثير من طلباتها دون اعتراض،تريد تعوضها عن ماضيها ، فعلا يقال أنه لا يفهم ألم المرأة إلا امرأة مثلها، ربما هذا ما جعل الخالة تساعد منى، والآن أصبحت ملاذها الآمن الذي لم تبتعد عنه ، تمر الأيام بسرعة البرق، ثم يعود التوتر ليطرق باب منى بعد مدة من الزمن، لم يكن هذا غير الشبح ذاته الذي لم يضجر من ملاحقة منى وأحلامها، فالليلة الماضية عصم عينيها وكبل يديها ، وأغلق فمها ليمكن من التحدث دون مقاطعة منها، البارحة لم يكن الحلم كغيره، لأن الطيف كشف عن نفسه أخيرا ، ها هو يقترب من منى كثيرا ويضمها بين ذراعيه ثم يفتح عينيها لتجده طيف

من روح أمها زينب، تبكي الصغيرة بصوت عال بحلمها وتتشبث بيد والدتها، التي جاءت اليوم في آخر زيارة لابنتها بعد أن اطمأنت على حالها، لم تقل غير جملة واحدة: { بنيتي إياك أن تفلتي يد خالتك} ...بعدها اضمحل الطيف ورحل للأبد تفرغ منى من نومها وهي تنادي: أمي....أمي...

تهرع إليها المرأة تضمها لتهدأ من روعها ، وتسألها عن الكابوس الذي رأته.

منى: إنه الشبح الذي كان يرافقني دائما منذ طفولتي اليوم كشف عن هويته لي وحدثني ورحل.

الخالة: من يكون ؟ وماذا قال لك؟

منى: لقد كان طيف والدتي، أوصاني أن لا أترك يدك أبدا.

الخالة: ألم ..أقل لك بنيتي أن خيالنا ينسج أفكارا غريبة هي من وحي الخيال ، يكون بطلها شخص نرتاح له ونثق به ، وهذه حالة نفسية عادية تنتج عن التوتر والقلق، لا تقلقي ستكونين بخير معي.

بعد هذا أظنه اليوم المناسب للكشف عن البطاقات كلها على طاولة الحقيقة حتى تكتمل الصورة.

الخالة: صباح الغد سأجيب عن أسئلتك كلها.

التخلف عن المواعيد واللقاءات نجبر ونرغم عليه أحيانا لأنه قد تصادفنا أحداث جديدة لم نتوقع حدوثها هذا اليوم، وهذه كفيلة ببرمجة برنامج يومي جديد دون الاكتراث لأمر المواعيد السابقة، قد تكون قوة القدر أو قوة الطبيعة ،وهذا ما حدث مع علي الذي أصيب بكسر برجله اليمنى جراء حادث مرور الذي وقع معه أثناء تنقله من المدينة إلى القرية تلك الليلة.

تنتظر منى صباح الغد بفارغ الصبر لتتمكن من معرفة هذه الأسرار التي حاصرتها طول هذه المدة ،تتقلب الصغيرة يمينا وشمالا وهي تفكر ، إن كانت هذه الحقيقة ستغير حياتها للأفضل أن أنها ستدخلها دوامة جديدة من الأكاذيب، لا تريد أقاويل كثيرة بل أنها تريد الحقيقة في أبسط معانيها.

ينجلي الليل حاملا بعضا من هموم منى، وها هو الصباح يتنفس ليوم جديد يبث الأمل بروح الصغيرة من جديد ، تستحم وتغير ملابسها ثم تنزل من غرفتها متجهة إلى غرفة الطعام، لتجد الخالة منشغلة بتحضيرها، تلقي التحية عليها.

صباح الخير خالتي، كيف حالك؟

الخالة: صباح الخير طفلتي ،بخير وأنت؟

منى: على أحسن حال، أتريدين مساعدة خالتي؟

الخالة: لا يا صغيرتي لقد أشرفت على الانتهاء، اجلسي ريثما أعود إليك.

تنتبه منى وجود ثلاثة صحون على الطاولة، ولا يوجد غيرها في البيت تسأل الخالة: خالتي لمن الصحن الثالث؟

الخالة: هناك ضيف سيهل علينا قريبا ، يريد التعرف عليك.

تتحمس منى لرؤية هذا الشخص الذي يريد رؤيتها ومعرفتها وهي لا تعرفه حتى، إنها مغامرة جميلة، لكن هل ستكون نهايتها لصالح منى ، أحيانا نلتقي أشخاصا تجمعنا بهم الصدف ويكون هذا اللقاء لقاءا عابرا لكنه قد يترك أثرا طيبا من شأنه أن يذكرنا بهذا الشخص من فترة لأخرى.

تجلس الخالة إلى السفرة قرب منى وها هما ينتظران بشوق ظهور الضيف ، يا ترى من يكون ؟ بعد لحظات معدودة يتخلل سمع منى صوت أقدام تمشي هوينا هوينا، تلتفت إلى الباب لترى شابا أنيقا يرتدي سترة سوداء، على رأسه قلنسوة تغطي وجهه،رقيق عوده، أنيق منظره، يدنو أكثر فتجده مضمد الرجل يتكئ على عصا خشبية لامعة ، كأن رجله مكسورة، تسرع إليه الخالة لتساعده في المشي ، تتساءل منى: ربما هو ابنها، أو أحد أفراد عائلتها، لكم لمَ يخفي وجهه هكذا؟

يجلس الشاب أخيرا، تنتظر منى رفعه قبعته لترى وجهه ، لكنه لم يرفعها بعد كأنه أحب ملامح الحيرة التي رُسمت على وجه منى تصب الخالة له فنجانا من القهوة ،ها هو يتوانى في ارتشافه دون أن يتفوه بكلمة واحدة، تستقطع الخالة جلسة التأمل هذه وتقول:

منى تناولي فطورك ، ما بالك شاردة الذهن؟

منى: نعم...نعم خالتي سأتناوله.

الخالة: أعلم يا صغيرتي أنك تريدين معرفة من يكون.

منى: نعم خالتي أتشوق لذلك فعلا.

الخالة: ارفع قبعتك بني لتتمكن من رؤيتك.

ها هي اللحظة الحاسمة ، كشف المستور ، الآن ستتضح الصورة أمام منى ، لكن يا ترى ما سبب حيرتها، إنها لم تتفوه بكلمة ، فُتح فمها، برزت عيناها، قُطبت حاجباها ، يا ترى ما سبب الحيرة هذه؟

لم أتخيل قط أن هذا سيحدث مع منى انقلبت حياتها رأسا على عقب، طبعا إنها فتاة صبرت على كل أشكال المصائب، لم تشك حالها لغير الله، لم تتمرد على القدر يوما، لم تعارض واقعها أبدا، كانت قنوعة ببساطة حياتها رغم قسوتها فعلا ، رَبُ الخير لا يأتي إلا بخير، ولا يؤجل خيرا إلا لخير منه، هكذا كانت منى تحافظ

على نور شمعة الأمل داخل قلبها، كان ظنها بالله أحسن وأفضل دائما، إنه تحتسبه وتدعوه في خلوتها لأن يخفف عنها.

الآن أنا أيضا متشوق لمعرفة هذا الشخص الذي قلب موازين حياة منى ، ألقيت نظرة عليه، يا إلهي إنه علي، نعم الشاب الغريب ذاته الذي قابل منى عند الوادي ، لكن ماذا يفعل هنا؟ وما صلة القرابة بينه وبين الخالة؟ تعقدت القصة أكثر ، والخالة فقط من سيجيب عن هذه الأسئلة.

منى: أيعقل هذا؟ علي؟ ماذا تفعل هنا؟

علي: رويدك منى...ستفهمين قريبا.

الخالة: صغيرتي وصولك هنا ليس صدفة، وتعرفك على {علي} ليست صدفة، ووجوده هو اليوم هنا ليس صدفة، كل هذه الأحداث مرتبطة بعضها البعض لأجل غاية وهدف واحد هو أنت يا منى.

منى: إذن كانت خطة محكمة منكما، لكن لماذا لم تخبريني بالأمر سابقا؟

الخالة: الأمر ليس بسيطا كما يبدو لك، إنه معقد ولم أستطع إخباره بهذا حتى لاحظت استقرارك النفسي.

منى: وضحي لي الأمر أكثر، أشعر أنني بكابوس فعلا.

الخالة: ليس كابوسا ولا حلما إنه يا بنتي الحقيقة وفقط، حقيقة حياتك إنها عائلتك التي حرمت منها بالطفولة إنه حقك يا منى.

علي: أنت بريئة جدا يا منى، لدرجة أنك صدقت والدك بسرعة ولم تسألي عن باقي الأحداث، إن كانت أمك قد توفيت أين دفنت ولمَ لم يأخذك والدك إلى قبرها؟

منى: فعلا صدقت ، لم أسأله عن ذلك.

علي: خاتمة والدتك أبشع من الموت، إنها ماتت آلاف المرات ولم ترتح، إنها لا تشعر بالسلام أبدا.

منى: أهذا ما كان يجعلها تتردد بأحلامي؟

علي: لا أعلم هذا؟ لكن ما أعلمه هو أنها كانت تفكر بك طول الوقت.

منى: كيف لك أن تعرف كل هذا عن والدتي.

الخالة: لفد عرف هذا مني أنا، ما الأمر الذي أثار انتباه علي حينما قابلك؟

منى: القرطان.

الخالة: والأمر ذاته أثار انتباهي أيضا.

منى: أتقصدين ...؟

الخالة : نعم أقصد ذلك تماما.

تزود صبرا تجد خيرا ، فعلا هكذا كانت منى صبورة على الصعاب بانتظار الخير قريبا ، علي هذا شاب صغير يدرس بالقسم النهائي بالثانوية ،لم يذهب إلى القرية ببحث كانت كذبة، وإنما الخالة هي التي أرسلته إلى ذلك المكان، وهي من أعطاه اسم منى وعنوانها ليراقبها ويتعرف عليها وبالأخير يقودها للوصول إلى بيت الخالة، هذه هي الخطة المدبرة ، لكن لمَ كل هذا؟

الخالة: قبل سنوات طويلة من اليوم جاءت زينب إلى بيت والدها ، وهي محطمة الآمال منكسرة الفؤاد ، إنها قد طعنت من أقرب الناس إليها، من حبيبها عمر وصديقتها علياء، في بادئ الأمر كانت تود الانتحار لترتاح من ألم الخيانة لكن هناك أمر كان يمنعها من الإقبال على هذه الخطوة الغبية، كانت قوية الإيمان لكن بعد تلاطم الأزمات أزمة تلوى الأخرى لم تعد قوية مثل السابق، فبجانب الخيانة وجدت نفسها تعاني تأنيب الضمير والفراق أيضا، علمت بوفاة والديها ، ولم يعد لها سند بالحياة غيري أنا.

منى: ومن أنت ؟

الخالة: أنا الأمل الذي بحثت عنه والدتك قبل سنوات، والأمل الذي رعى علي كل هذه السنوات، والأمل الذي بحثت أنت عنه أيضا.

منى: لم أفهم بعد يا خالتي؟

الخالة: أنا أمل أخت زينب يعني خالتك يا منى.

منى: خالتي؟ لكن لم يخبرني يوما والدي بوجودك.

الخالة: وهل أخبرك بوجود أمك سابقا حتى يخبرك بوجودي.

منى: إذن علي هو ابنك؟

الخالة: ابني وليس ابني.

منى:كيف ذلك؟ ما اجتمع متناقضان يا خالتي؟

الخالة: أنا من قمت برعايته وتربيته ، لكنني لست أمه البيولوجية، هل فهمت؟

منى: نعم...الآن فهمت.

الخالة: منى هذا بيت جدك يعني والدي ووالد أمك، وكانت وصية أمك أن تأتي للعيش معي هنا، ولم يتسن لنا أخذك من القرية قبلا، لأن علياء كانت تمنعني من زيارتك والوصول إليك ، وقطعت علاقتك بالجيران حتى لا أتمكن من مراسلتك، لهذا انتظرت الوقت المناسب لأقوم بهذه الخطوة.

منى: لكن لمَ أرسلت علي بدلا عنك؟

الخالة: علي غريب لا أحد يعرفك بالقرية، لكن أنا الكل يعرفني هناك وقد يبلغون علياء بوجودي، فوجدت إرسال علي بدلا عني حل آمن لك ولي.

ألم أقل لكم أن علي ليس بغريب كما كانت تظن منى، أنه شخص قريب منها ، وهناك أكثر من قاسم مشترك بينهما، وحديث الخالة هو الذي سيكشف لنا ذلك.

الخالة: لم أكن الأمل الوحيد بحياة زينب.

منى: ومن كان هناك أيضا؟

قبل تلاطم أمواج الغدر والخيانة على زينب وانقلاب حياتها إلى مأساة كانت تحمل حياة جديدة داخلها، وكانت تنوي إخبار والدك وعلياء الليلة نفسها التي قرروا التخلص منها فيها، فلم تشأ زينب أن تتوسل لأن شعرت أن حب عمر لها انقرض ولم تجد لنفسها مكانا حتى بعيونه ،فإنه غض النظر عنها تلك الليلة ولم يكن يرى غير علياء وتسلطها ،هذا الحياة الجديدة التي تركت مجالا لأختي لتتذكر مأساة ذلك اليوم من جهة، وأعطتها قوة التحمل والصبر من جهة أخرى.

للأسف لم يكن مقدرا لزينب لتفرح بك ولا بالمولود الجديد الذي غادرته بين ثلاثة أشهر من ولادته، ليجد نفسه يتيم الأب والأم .

منى: الآن فهمت..علي هو أخي الذي قمت برعايته أنت يا خالتي؟

الخالة: نعم إنه أخوك الأصغر بنيتي.

مهما تزاحمت الآلام على باب حياتك، وتسارعت الأحزان لغزو قلبك،اترك مكانا ولو كان صغيرا ليعيش فيه الأمل لغد أجمل بفجر جديد، والتغيير لا بد منه ، لا تيأس فإن الله معك، ستفرج بإذنه سيأتي اليسر قريبا ، ويدق الفرح بابك حاملا باقة من السعادة والأمل.

شاطرت منى خالتها وعلي الحديث طويلا لأنها كانت مشتاقة جدا للحنان والعطف ، وها قد وجدته أخيرا، الآن فهمت لم أوصاها طيف والدتها بإمساك يد هذه المرأة، ربطت الأحداث بعضا ببعض وكشفت الحقيقة بكاملها ولم يعد هناك أسرار، حياتها الجديدة الآن لا وجود فيها للحزن والآلام ولا لسلطة علياء، لكن منى تشتاق لوالدها الذي لا تدري ما الذي حصل معه بغيابها، ها هي تصر على خالتها لتأخذها لزيارته، رفضت الخالة طويلا، لكن علي دفعها للموافقة لأنه يريد التعرف على والده أيضا، كنت أظن علي يحمل الحقد والكره لوالدك،لكن وجدت غير ذلك فقد ظهر العكس عند زيارتهم له.

في صباح اليوم الموالي قرر علي اصطحاب منى وخالته إلى القرية، وها هم يركبون السيارة متجهين إلى مفاجأة عمر من جهة وطمأنتها من جهة أخرى، يا ترى كيف سيستقبل عمر هذا الواقع الجديد، الذي لم يكن يملك أدنى فكرة عن وجوده؟

ها هم قد وصلوا البيت إنها الفرصة المناسبة علياء غادرت البيت، وعمر مستلق كعادته على كنبته بالصالون ، يضم صورة منى إلى صدره ودموعه مزخرفة على خديه تأبى التوقف،منظر يثير الشفقة حقا، وما إن دخلوا البيت حتى انهارت منى بالبكاء والنواح ،يفتح عمر عينيه ليجدها أمامه تسرع إلى حضنه لتتشبث به بقوة، إنه الشوق وألم الفراق حقا ، ما إن ابتعدت منى عن والدها حتى انتبه لأمل لقد عرفها بسرعة رغم أنه لم يرها إلا مرة واحدة، ها هو يرحب بها: تفضلي أمل.

احتارت أمل وردت عليه: ألازلت تذكرني؟

عمر: نعم لازلت أذكرك، رغم أنك كبرت لكنك لم تتغيري أبدا ، هل هذا ابنك؟

أمل: نعم إنه ابني يا عمر.

منى: أبي ...أعتذر لأنني تركتك وحيدا لكن أنت تعلم حجم ما عانيته من ألم لم يقو قلبي على التحمل أكثر،لذا قررت المغادرة،

وصدفة التقيت عائلتي وسمعت قصة أمي كاملة، لمَ كذبت يا أبي؟

عمر: بعد أن ساءت حياتي، وتلاطمت عليً أمواج الندم، وخاصمني الدهر وغضب مني الربُ وفقدت كل ما أملك، وأصبحت كبش فداء لرغبات علياء ، لم أشأ أن أخسرك أنت الأخرى لأنك المنى الوحيد الذي أملك، ولا عقاب أشد مما أعانيه الآن فلا تزيدي من كارثتي يا بنيتي.

منى: وهل تظنني أنني قاسية لهذه الدرجة؟ كنت سأغضب لفترة ثم أسامحك بالأخير إنك أبي.

عمر: أعلم كرم أخلاقك، إنك تذكرينني بزينب حقا.

أمل: أظن حان الوقت لأخبرك بحقيقة أخرى يا عمر.

عمر: ما الأمر يا أمل؟ وأين هي زينب؟أريد أن أعتذر منها.

أمل: للأسف فات الأوان ،لن ينفعك لا الاعتذار ولا الندم الآن، فالقلب الذي كسرته لن يترك لك فرصة لتجبره.

عمر: ويحي...من هذا، كيف حصل هذا؟

أمل: زينب توفيت بعد سنة واحدة من مغادرتها القرية ، وكانت تحمل لك هدية ذلك اليوم، أوصتني إيصالها لك، وها أنا أفي بوعدي اليوم.

عمر: ما كانت الهدية؟

أمل: الهدية هي علي الشاب الذي يقف أمامك ،إنه ابنك الذي غادرت زينب البيت وهي حامل به، قد حاولت إخبارك الحقيقة مرارا وتكرارا لكن علياء لم تسمح لي قط حتى بدخول القرية، فلما إن وطأت قدماها تراب القرية ، حتى أجد أمامي أشخاص يمنعونني من الدخول.

عمر: لا أصدق؟ إنها فعلت كل هذا بهدف الثراء فقط، الآن لا أراها إلا ليلا ولا تهتم لأمري أبدا أشعر بالوحدة والكآبة ،فعلا المرأة كيدها عظيم.

اقترب مني بني، وضمني، لأشم رائحة والدتك فيك.

يضم علي والدها بحرارة كبيرة، كان يشتاق لهذه اللحظة لأنه لم يحقد على والده ، فأمل أثبت له أنه كان مجبرا على كل ما فعله وليس هو الملام في ذلك، بل العين الحسود الحقود التي نظرت إلى هذه العائلة وقررت تحطيمها هي السبب الأول والأخير في كل ما آلت إليه حياة عمر ومنى .

علياء لازالت تركض وراء طيف النجومية والعالمية وهذه المرة ستسقط بحفرة لن تخرج منها أبدا إنه جزاء ما فعلت ، فالجزاء من جنس العمل.

اقترب موعد عودة علياء وها هي أمل تهم بالرحيل لأنها لا تريد أن تراها ، وقد تفهم عمر ذلك، اليوم تغادر منى وبال عمر

مرتاح لأنها بأيد أمينة لن تتركها أبدا ، قرر عمر بعدها أن يزور أولاده من حين لحين وقد رحبت به أمل ودونت له العنوان ورقم الهاتف أيضا حتى يتسنى له التحدث معهما متى أراد ذلك.
أحيانا نتخذ قرارات عفوية بشكل عشوائي، لكنها في الأخير توصلنا إلى الوجهة الصحيحة، إذن ما كان ينقصنا هو جرعة من الإرادة والتصميم والإصرار، والقناعة والرضا بقضاء الله وقدره.
عادت أمل إلى البيت رفقة علي ومنى ، وهي مرتاحة البال الآن لأنها بلغت الأمانة لأهلها ، وعلي يشعر بالسلام لأنه قابل والده ، ومنى تشعر بالأمان لأنها وسط عائلتها الحقيقية أخيرا.
ها قد مر شهر واحد منذ رحيل منى عن والدها ، ها هو اليوم يقف عند الباب متشوق لضمها وضم علي قد أتى خلسة كعادته، اغتنم فرصة خروج علياء إلى المتجر وقد أخذت معها مراد ، أوهمها أنه موعد فحصه الطبي و وها هو يزور الطبيب المناسب.
تفتح منى الباب تضم والدها وتنادي لعلي، ليسرع إليه من غرفته ،مهلهلا ومرحبا بك كأنه يستقبل شخصا مهما ،نعم لا تقل قيمة عمر بحياة علي عن قيمة شخص آخر ، قدمت الصغيرة لا بل الأميرة الشابة كل ما لذ وطاب من الحلويات لوالدها، في حين

أن علياء كانت تهتم بعلمها بالدكان ،تركت مراد وحده بالمحل وخرجت لاقتناء القماش من المحل المجاور ، إنها لم تتعب من العمل أبدا كيف لها بالتعب؟ إن كانت أرباحها تزداد يوما عن يوم.

تناول عمر الضيافة التي أعدتها منى ، وها هو يمازح علي تارة، ويغازل منى تارة أخرى، فجأة رنات هاتف عمر تقطع جلسته العائلية هذه، إنه اتصال من العم أحمد : تغيرت ملامح عمر فور إجابته عن الهاتف ، وتسارعت نبضات قلبه لينتهي به المطاف أخيرا بالمستشفى، لم يجد حوله عند استعادته وعيه غير أمل ومنى وعلي، إنه لا يقوى على تحريك قدميه ، ولا يقوى على الكلام، قال الطبيب أنها نوبة قلبية صاحبها نزول بضغط الدم مما أدى إلى شلل نصفي عند عمر، لكن ما كان الخبر الذي تسبب في هذا كله يا ترى؟

فعلا الإنسان يحصد ما قد زرع ، والعقاب لابد منه حتى ومن تأخر، عاقبة الطمع والجشع دائما سيئة، لقد كان الجد على حق حينما قال أنه ما قد سلم صاحب الطمع من عاقبته السيئة أبدا وهذا ما كان يخشاه على علياء ، التي لقيت أشد عقوبة على أعمالها الشريرة ، والآن لا صديق لها، ولا زوج، ولا ابنة، ولا ابن حتى، فغن مراد الصغير الذي لم تأبه علياء لأمره حينما تركته وحيدا

بالمحل حيث قام بإشعال النار التي سرعان ما أكلت كل ما كان بالمحل وللأسف لم يسلم مراد لأنه أصيب بحروق عميقة ، أدت إلى موت فور وصوله إلى المستشفى وكانت هذه صاعقة أدت إلى انهيار عمر ،لم يفكر يوما أن ما فعلت علياء سيكون ضحيته هذا الصغير البريء، ما كان له ذنب سوى أن علياء كانت أمه.

بعدها أصيبت علياء بانهيار عصبي شديد ،ودخلت أزمة نفسية معقدة وقد نقلت إلى المَصَحة العقلية بالمدينة لتأخذ علاجا مناسبا لحالتها وتجد الرعاية التامة هناك، لم يتبق شيء من حياتها غير رفات منثور هنا وهناك يذكرها بمراد، وبقايا من ذلك المكان المتفحم الذي أصبح محرقة بالنسبة لعمر ، منى حزنت كثيرا لوفاة أخيها، لأنه كان لطيفا معها ولم يسئ معاملتها يوما ، أما مراد كان يريد الانتقام من علياء لكنه لم فكر في أذية أخيه الذي يقابله حتى ، لم تلطخ منى طيبتها بشرارة الانتقام لكن أراد القدر أن يكون عادلا معها فغير حياتها، ولم يترك لها من حياتها السابقة سوى القليل من الذكريات التي ربما تضمحل مع مرور الوقت ، بعد مدة طويلة قضاها عمر بالمستشفى ها هو اليوم يعود إلى البيت مع عائلته الجديدة أمل وعلي ومنى ، لا يقوى على الكلام لكنه يقوى على الكتابة لقد كتب على ورقة أنه يريد زيارة قبر زينب قبل أن يعود إلى البيت ، وافقت أمل على ذلك وها هي

تأخذه إلى المقبرة مع منى وعلي، لا ندري ماذا قال ؟ لكن أظن أنه طلب العفو من زينب ، ربما هذا سيجعل روحها تشعر بالسلام والخلاص أخيرا، لأنها رأت منى وعلي وسمعت عمر حبيبها الذي أخلصت له طول حياتها.

إذن قبل أن نُقدم على اقتحام حياة الآخرين علينا أن نفكر في العواقب، علينا أن نجرب شر الأمور على نفسها قبل أن نجربها على الآخرين ، حتى نتمكن من طمع الروح الشريرة التي تعيش داخل كل فرد منا وذلك من خلال بحرقها بنار شرها قبل أن نحرق الشخص الآخر.

إذن هكذا انتهت قصة منى ، وها أنا أرتشف القهوة الساخنة مع أمي على شرفة غرفتي أتأملها تارة وأغازلها تارة أخرى، أمي أغلى ما أملك في هذه الحياة إنها ثروتي التي لا أقبل أن يشاركني فيها أحد،وها أنا أقرأ مقالتي التي نشرت على جريدة اليوم وكان عنوانها { قسوة امرأة } جسدت فيها شخصية علياء ، المرأة الطموحة الناجحة التي لم تهتم لأحد غير نفسها، آه....قد نسيت لقد أتى خالد معي غلى المدينة وقمت بتسجيله بمعهد الموسيقى ، لقد تفوق كثيرا على أقرانه واليوم أنا وأنتم مدعوون على حضور حفل بالمعهد سيعزف فيه الصغير خالد.

كانت رحلتي إلى هذه القرية مشوقة جدا وجميلة، تعرفت فيها على شخصيات عديدة ولعل أهما خالد الذي ساعدني كثيرا في تحسين ذوق لبسي ، والآن سأرتدي الطاقم الأسود ذاك الذي اختاره لي خالد في آخر جولة قمنا بها معا في المدينة ، قال لي أن هذا سيجعلني جذابا جدا ، ولن تبتعد الأنظار عني بالحفل سأسرق الأضواء منه، لا أعلم إن كان حقيقة أم أنه كان يمازحني كعادته، لكن هذا الصغير غير حياة الفشل التي كنت أعيشها بحياة لا وجود فيها غير النجاح والاحترام والتقدير ، الذي رأيته بعيون قراء جريدتي لأول مرة منذ حصولي على الوظيفة.

اليوم وصلت لذروة الجبل بفضل هذا الطفل الصغير، لذا أقول لكم الأطفال ليسوا أطفالا دائما وإنما هو يتمتعون بلحظات عابرة من طفولتهم تكون عقولهم فيها ناضجة، صدق من قال : يودع سره في أضعف، ربما تجد ضالتك عند أضعف خلق الله ، إذن لا تحتقر الناس أبدا، فكل شخص منا يتمتع بطاقة مكنونة لا تظهر للوجود إلا حينما يحين الوقت المناسب.

- تمت -

وقفات

أهم سبب ودافع للقراءة هو أخذ الموعظة والعبر والاقتداء بها في الحياة ولعله بعد تعرفنا على قصة منى تعلمنا الكثير والكثير لنجمله في سطور قليلة :

الإنسان مجبول على النسيان والنكران، فعند نجاحه ووصوله إلى القمة ينسى الذين ساعدوه حينما كان يكافح في الأسفل.

يمكن للوسائل الدنيئة والحيل القذرة أن ترفعك إلى القمة ولكنها لن تبقيها طويلا هناك، وكل نجاح له ثمن.

بعض المواقف من حياتنا لا يتوجب علينا الإفصاح عنها ،بل علينا احتراف الصمت وتجبن الثرثرة حتى لا تكون هذه الحقائق نقطة ضعفها يستغلها غيرنا.

السعادة الحقيقية تكمن في إسعاد الآخرين لا في تعاستهم وأذيتهم.

السمعة الطيبة والمكانة الرفيعة بقلوب الناس خير من أي مكسب دنوي مهما كان كبيرا.

الوفاء خلق عظيم لا تتحلى به إلا النفوس العظيمة.

أحيانا لا ندرك قيمة وجود بعض الأشخاص بحياتنا ،إلا بعد فقدانهم وفوات الأوان.

إن الحيلة، ترك الحيل ،ربح صغير قد يخبئ وراءه خسارة فادحة تكون عاقبتها وخيمة.

